

أَحْسَنُ الْأَخْلَاقِ

رحلة في تهذيب النفس
واكتساب محاسن الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

أحسن الأخلاق

رحلة في تهذيب النفس واكتساب محاسن الأخلاق

النسخة الموسعة المراجعة

الكتب الأحد عشر

دار مدارج للنشر

هذا الكتاب وقف لله تعالى

المحتويات

إهداء ... 12

المقدمة ... 13

الكتاب الأول — ماهية الخلق ومكانه من الدين

الفصل ١ — الخلق والخلق ... 20

الفصل ٢ — الفطرة والطبع والعادة والاكتساب ... 22

الفصل ٣ — من النية إلى السجية ... 25

الفصل ٤ — حسن الخلق مع الله والنفس والخلق ... 27

الفصل ٥ — الأخلاق ثمرة التوحيد والإيمان والتقوى ... 29

الفصل ٦ — العبادات ومدرسة الأخلاق ... 31

الفصل ٧ — لماذا يحسن الإنسان في باب ويسيء في آخر ... 33

الفصل ٨ — الميزان الشرعي لا المزاج والعرف وحدهما ... 35

الكتاب الثاني — القرآن وبناء الإنسان الخلقى

الفصل ٩ — وإنك لعلى خلق عظيم ... 38

الفصل ١٠ — الرحمة أصل جامع ... 40

الفصل ١١ — العدل مع الموافق والمخالف ... 41

الفصل ١٢ — الإحسان وما فوق العدل ... 42

الفصل ١٣ — الصبر وكظم الغيظ ... 43

الفصل ١٤ — العفو والصفح والإصلاح ... 45

الفصل ١٥ — الرفق واللين وخفض الجناح ... 46

- الفصل ١٦ — الصدق والصدقية ... 47
- الفصل ١٧ — الأمانة والوفاء بالعهد ... 48
- الفصل ١٨ — التواضع وترك الفخر والخلاء ... 49
- الفصل ١٩ — الحياء والعفة ... 50
- الفصل ٢٠ — حسن القول والجدال بالتي هي أحسن ... 51
- الفصل ٢١ — حفظ اللسان ... 52
- الفصل ٢٢ — إصلاح ذات البين ودفع السيئة بالحسنة ... 53
- الفصل ٢٣ — البر والصلة والإحسان إلى الضعيف ... 54
- الفصل ٢٤ — مدارس قرآنية في الأخلاق ... 55
- الفصل ٢٥ — الرحمة والحزم والعفو وإقامة الحق ... 56
- الكتاب الثالث — قدر حسن الخلق في السنة**
- الفصل ٢٦ — بعثت لأتمم صالح الأخلاق ... 58
- الفصل ٢٧ — حسن الخلق وكمال الإيمان ... 59
- الفصل ٢٨ — أثقل ما يوضع في الميزان ... 60
- الفصل ٢٩ — القرب من النبي ﷺ ... 61
- الفصل ٣٠ — درجة الصائم القائم ... 62
- الفصل ٣١ — تقوى الله وحسن الخلق ... 63
- الفصل ٣٢ — بيت في أعلى الجنة ... 64
- الفصل ٣٣ — الفحش واللعن والخصومة ... 64
- الفصل ٣٤ — الرفق يزين الأمور ... 65
- الفصل ٣٥ — الحياء من الإيمان ... 66

- الفصل ٣٦ — القوة عند الغضب ... 67
- الفصل ٣٧ — وصايا جامعة في المعاملة ... 68
- الفصل ٣٨ — جوامع السنة في ميزان واحد ... 69
- الكتاب الرابع — كان خلقه القرآن
- الفصل ٣٩ — شهادة عائشة رضي الله عنها ... 70
- الفصل ٤٠ — رحمته ﷺ بالامة ... 72
- الفصل ٤١ — أخلاقه في البيت ... 73
- الفصل ٤٢ — خدمته لأهله وتواضعه في معيشته ... 73
- الفصل ٤٣ — مع الأطفال واليتامى والضعفاء ... 74
- الفصل ٤٤ — مع الخادم والأجير ... 75
- الفصل ٤٥ — مع الأعرابي والجاهل وحديث العهد بالإسلام ... 76
- الفصل ٤٦ — حلمه عند الأذى الشخصي ... 77
- الفصل ٤٧ — عفوه عند المقدرة ... 78
- الفصل ٤٨ — عدله في حقوق الناس ... 78
- الفصل ٤٩ — صدقه وأمانته ... 79
- الفصل ٥٠ — الوفاء بالعهد وحفظ الجميل ... 80
- الفصل ٥١ — تواضعه ﷺ ... 81
- الفصل ٥٢ — حياؤه وعفته ونقاء لسانه ... 82
- الفصل ٥٣ — جوده وحسن عشرته ... 82
- الفصل ٥٤ — شجاعته وثباته دون قسوة ... 83
- الفصل ٥٥ — مزاحه الصادق ولشاشته وإنصاته ... 84

- الفصل ٥٦ — أدبه في التعليم وتصحيح الخطأ ... 85
- الفصل ٥٧ — أدبه في النصيحة والعتاب ... 85
- الفصل ٥٨ — مع المخالف والأسير ... 87
- الفصل ٥٩ — أخلاق القيادة ... 87
- الفصل ٦٠ — أخلاق الحرب والسلم والعهود ... 88
- الفصل ٦١ — ضبط قراءة السيرة والشمائل ... 89
- الكتاب الخامس — مكارم الأخلاق في حياة الأنبياء
- الفصل ٦٢ — آدم عليه السلام والاعتراف بالذنب ... 90
- الفصل ٦٣ — نوح عليه السلام وطول الصبر ... 91
- الفصل ٦٤ — إبراهيم عليه السلام الحليم المضيف ... 92
- الفصل ٦٥ — إسماعيل عليه السلام صدق الوعد والصبر ... 93
- الفصل ٦٦ — يعقوب عليه السلام والصبر الجميل ... 94
- الفصل ٦٧ — يوسف عليه السلام العفيف المحسن ... 94
- الفصل ٦٨ — موسى عليه السلام القوة والأمانة والرجوع ... 96
- الفصل ٦٩ — هارون عليه السلام والرفق في الفتنة ... 96
- الفصل ٧٠ — داود وسليمان عليهما السلام العدل والشكر ... 97
- الفصل ٧١ — أيوب عليه السلام والصبر وحسن الشكوى ... 98
- الفصل ٧٢ — يونس عليه السلام والرجوع بالتسبيح ... 99
- الفصل ٧٣ — زكريا ويحيى عليهما السلام ... 100
- الفصل ٧٤ — عيسى عليه السلام البر والتواضع والرحمة ... 100
- الفصل ٧٥ — كيف نقرأ أخلاق الأنبياء ... 101

الكتاب السادس — الصحابة أخلاق صنعت جيلاً

- الفصل ٧٦ — أبو بكر رضي الله عنه ... 103
الفصل ٧٧ — عمر رضي الله عنه ... 104
الفصل ٧٨ — عثمان رضي الله عنه ... 105
الفصل ٧٩ — علي رضي الله عنه ... 106
الفصل ٨٠ — خديجة رضي الله عنها ... 106
الفصل ٨١ — عائشة رضي الله عنها ... 107
الفصل ٨٢ — فاطمة رضي الله عنها ... 108
الفصل ٨٣ — أبو عبيدة رضي الله عنه ... 109
الفصل ٨٤ — ابن مسعود رضي الله عنه ... 109
الفصل ٨٥ — ابن عباس رضي الله عنهما ... 110
الفصل ٨٦ — أنس رضي الله عنه ... 111
الفصل ٨٧ — سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما ... 112
الفصل ٨٨ — الأنصار رضي الله عنهم ... 112
الفصل ٨٩ — التوبة والاعتذار ورد الحقوق ... 114
الفصل ٩٠ — أدب الصحابة في الاختلاف ... 114

الكتاب السابع — التابعون والسلف مدارس في تهذيب النفس

- الفصل ٩١ — الحسن البصري ومحاسبة النفس ... 116
الفصل ٩٢ — علي بن الحسين والعلم والورع ... 117
الفصل ٩٣ — سعيد بن المسيب والوقار ... 118
الفصل ٩٤ — عروة والقاسم والعلم المؤدب ... 118

- الفصل ٩٥ — عمر بن عبد العزيز وأمانة المسؤولية ... 119
- الفصل ٩٦ — محمد بن سيرين والورع في الكلمة ... 120
- الفصل ٩٧ — سفيان الثوري والخوف من آفات النفس ... 120
- الفصل ٩٨ — عبد الله بن المبارك والأدب والصحبة ... 121
- الفصل ٩٩ — الفضيل بن عياض ومداواة العجب ... 123
- الفصل ١٠٠ — بشر الحافي ومعروف الكرخي ... 123
- الفصل ١٠١ — كيف نقرأ كتب الزهد والتراجم ... 124
- الكتاب الثامن — الأئمة الأربعة العلم حين يصير خُلُقًا
- الفصل ١٠٢ — أبو حنيفة الحلم والورع ... 125
- الفصل ١٠٣ — مالك وهيبة العلم ... 127
- الفصل ١٠٤ — الشافعي وإنصاف المخالف ... 129
- الفصل ١٠٥ — أحمد والصبر في المحنة ... 130
- الفصل ١٠٦ — التثبت من المناقب ... 132
- الفصل ١٠٧ — تعظيم النص والرجوع إلى الحق ... 132
- الفصل ١٠٨ — أدب الاختلاف بين المدارس الفقهية ... 133
- الكتاب التاسع — أمهات الأخلاق وآفاتها وعلاجها
- الفصل ١٠٩ — الصدق والكذب ... 135
- الفصل ١١٠ — الإخلاص والرياء ... 136
- الفصل ١١١ — التواضع والكبر والعجب ... 138
- الفصل ١١٢ — الرحمة والقسوة ... 140
- الفصل ١١٣ — الحلم والغضب ... 142

- الفصل ١١٤ - الرفق والعنف ... 144
- الفصل ١١٥ - العفو والحد والانتقام ... 145
- الفصل ١١٦ - السخاء والشح ... 147
- الفصل ١١٧ - الإيثار والأثرة ... 149
- الفصل ١١٨ - الحياء والوقاحة والمجل المعيق ... 151
- الفصل ١١٩ - الشجاعة والجبين والتهور ... 153
- الفصل ١٢٠ - العدل والظلم والمحاباة ... 155
- الفصل ١٢١ - الوفاء والغدر ونقض الوعد ... 156
- الفصل ١٢٢ - الأمانة والخيانة ... 158
- الفصل ١٢٣ - حسن الظن والتثبت وسوء الظن ... 160
- الفصل ١٢٤ - السر والنصيحة والتشهير ... 162
- الفصل ١٢٥ - التثبت في الأخبار وإشاعة الكذب ... 164
- الفصل ١٢٦ - المداراة والمداهنة ... 165
- الفصل ١٢٧ - التغافل المحمود والإهمال المذموم ... 167
- الفصل ١٢٨ - المزاح والجد وحدود الأذى ... 168
- الفصل ١٢٩ - الصمت والكلام وحفظ اللسان ... 170
- الفصل ١٣٠ - الغيبة والقيمة والسخرية والفحش والمراء ... 172
- الكتاب العاشر - مجاهدة النفس واكتساب الخلق
- الفصل ١٣١ - إمكان اكتساب الخلق وحدود الدعوى ... 174
- الفصل ١٣٢ - معرفة عيب النفس بلا احتقار لها ... 176
- الفصل ١٣٣ - النية والافتقار إلى الله ... 178

- الفصل ١٣٤ - اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ... 179
- الفصل ١٣٥ - اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي ... 181
- الفصل ١٣٦ - التَّوْبَةُ وَرَدُ الْمَظَالِمِ وَالْإِعْتِذَارُ ... 182
- الفصل ١٣٧ - الْمِرَاقَبَةُ قَبْلَ الْمَوْقِفِ وَبَعْدَهُ ... 183
- الفصل ١٣٨ - إِبْطَاءُ الِاسْتِجَابَةِ عِنْدَ الْغَضَبِ ... 184
- الفصل ١٣٩ - تَدْرِيبُ اللِّسَانِ عَلَى الْبَدِيلِ الْحَسَنِ ... 185
- الفصل ١٤٠ - التَّخَلُّقُ بِالْفِعْلِ حَتَّى يَأْلِفَهُ الْإِنْسَانُ ... 187
- الفصل ١٤١ - الصَّحْبَةُ وَالْبَيْئَةُ وَالْقُدْوَةُ ... 188
- الفصل ١٤٢ - الْعِبَادَةُ وَمُدَاوَاةُ الْكِبَرِ وَالشَّحُّ وَالشَّهْوَةُ ... 190
- الفصل ١٤٣ - الصِّيَامُ وَضَبْطُ الْإِنْدِفَاعِ ... 191
- الفصل ١٤٤ - الصَّدَقَةُ وَمَجَاهِدَةُ الشَّحِّ ... 192
- الفصل ١٤٥ - الْخِدْمَةُ وَمَجَاهِدَةُ الْأَثَرَةِ ... 193
- الفصل ١٤٦ - قَبُولُ النِّقْدِ وَالرَّجُوعُ عَنِ الْخَطَأِ ... 194
- الفصل ١٤٧ - الْإِتِّكَاسَاتُ وَالْعُودَةُ إِلَى الطَّرِيقِ ... 196
- الفصل ١٤٨ - كُظْمُ الْمَشَاعِرِ أَمْ ضَبْطُ السَّلُوكِ؟ ... 197
- الفصل ١٤٩ - مَتَى نَطْلُبُ اسْتِشَارَةَ أُسْرِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ؟ ... 199
- الفصل ١٥٠ - بَرْنَامَجُ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا ... 200
- الْكَتَابُ الْحَادِي عَشَرَ - الْأَخْلَاقُ فِي دَوَائِرِ الْحَيَاةِ**
- الفصل ١٥١ - مَعَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَرْحَامِ ... 216
- الفصل ١٥٢ - بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ... 218
- الفصل ١٥٣ - مَعَ الْأَبْنَاءِ وَالْمَرَاهِقِينَ ... 220

- الفصل ١٥٤ - مع الجار والضيف ... 221
- الفصل ١٥٥ - في العمل والتجارة والديون ... 223
- الفصل ١٥٦ - في القيادة والإدارة وخدمة الناس ... 225
- الفصل ١٥٧ - في الخصومة والقضاء والحقوق ... 226
- الفصل ١٥٨ - مع المخالف في الدين والرأي ... 228
- الفصل ١٥٩ - في التواصل والنشر والخصوصية ... 229
- الفصل ١٦٠ - أخلاق الخفاء ... 231
- خاتمة الرحلة ... 234
- أدعية تصحب المجاهدة ... 238
- بطاقة محاسبة عملية ... 242
- دليل المصادر والإحالات ... 244
- إحالات الفصول والنصوص ... 252

إهداء

إليك، يا من ندمت على كلمة جرحت بها من تحب، وتمنيت لو أنك ترفقت، ثم عزمتم أن تكون في المرة القادمة أحلم وأرحم. وإليك، وأنت تجاهد نفسك على الصدق، أو تحاول أن تعفو، أو تتعلم كيف تحفظ حقك دون أن تظلم غيرك. نهديك هذه الصفحات بحبة، ونرجو أن تجد فيها ما يعينك على خطوة صادقة في إصلاح نفسك.

نحن وإياك نحتاج إلى عون الله؛ نسأله أن يغفر تقصيرنا، ويهذب أقوالنا وأعمالنا. وإذا دعوت لنفسك بحسن الخلق، فاذكرنا بدعوة، واذكر والدينا وكل من أعان على وصول هذا الكتاب إليك.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، وأعنا على الرفق بمن حولنا، وردّ الحقوق إلى أهلها، والرجوع إليك كلما أخطأنا. جهدٌ مشتركٌ، نسألُ اللهَ فيه الإخلاصَ والقبولَ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا إلى الإيمان، وعلمنا ما ينفعنا، وأمرنا بالعدل والإحسان. نحمده على ما أنعم، ونستغفره مما قصرنا، ونسأله قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وعملاً يرضاه. والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم إنا نسألك أن تصلح ما فسد من أخلاقنا، وأن تعيننا على ما عرفنا من عيوبنا. اغفر لنا كلمة آذينا بها، وقسوة عاملنا بها من احتاج إلى رحمتنا، وحقاً أخرناه عن صاحبه. وارزقنا شجاعة الاعتراف بالخطأ، وصدق التوبة منه، والصبر على إصلاح آثاره. واجعل طلبنا لحسن الخلق طلباً لرضاك، ووفقنا للإحسان في السر والعلن.

قد ينتهي يومك وأنت تذكّر كلمة قلتها في لحظة غضب. كان يمكنك أن تقولها برفق، أو أن تسكت حتى تهدأ، لكنك استعجلت، ثم رأيت أثرها في وجه من أمامك. وربما اعتذرت، وبقي في نفسك سؤال تعرف صدقه: لماذا أعرف أن الحلم خير، ثم يسبقني الغضب؟ ولماذا أريد أن أكون رحيماً، ثم أقسو على أقرب الناس إليّ؟

هذا السؤال يستحق أن نقف عنده. فنحن لا نعيش أخلاقنا في المجالس التي نستعد لها وحدها، وإنما نعيشها في البيت حين نتعب، وفي العمل حين نختلف، ومع من يخطئ في حقنا، ومع من لا يملك أن يرد علينا. هناك يظهر ما يحتاج إلى إصلاح، وهناك أيضاً نتاح لنا فرص حقيقية لتعلم ونعود ونحسن.

ولسنا في هذه الحاجة وحدنا. لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله الهداية إلى أحسن الأخلاق. جاء في دعائه حين يقوم إلى الصلاة:

«وَاهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ».^[1]

في هذا الدعاء اعتراف بحاجتنا إلى الله في إصلاح أنفسنا. قد نعرف موضع الخطأ، ونعجز عن مقاومة ما اعتدناه؛ فنحتاج إلى علم يدلنا، وعزم يحملنا على العمل، وتوفيق من الله يعيننا على الثبات. وحين نقول: «واهدني لأحسن الأخلاق»، فإننا نسأل خيراً نريد أن يظهر في أقوالنا وأعمالنا، لا وصفاً نحب أن يثني به الناس علينا.

ويجمع الدعاء بين طلب المحاسن وطلب صرف المساوئ. فمن أراد أن يحفظ لسانه احتاج أن يترك الإيذاء، وأن يتعلم القول الطيب. ومن أراد أن يعدل احتاج أن يكف عن الظلم، وأن يؤدي

الحقوق. وهكذا يكون الإصلاح عملاً له أثر: عادة سيئة تتركها، وخير تتدرّب عليه، وموقف نرجو أن نحسن التصرف فيه إذا عاد. وحسن الخلق عظيم القدر، وإن كانت بعض أعماله هادئة لا يلتفت إليها كثير من الناس. قال رسول الله ﷺ:

«مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ». [٢]

يعيد هذا الحديث نظرنا إلى أعمال قد نستخف بها: كفّ الأذى في الخصومة، واحتمال زلة عارضة، والرفق بإنسان لم يحسن التعبير عن حاجته. كما ينبهنا إلى أن الفحش ليس علامة قوة، وأن إضحاك المجلس لا يهون قبح كلمة تُهان بها كرامة إنسان. وقد نحفظ كثيراً من الكلام عن فضائل الأخلاق، ويبقى علينا أن نحفظ ألسنتنا حين يكون ذلك أشق على نفوسنا.

ومن أقرب ما يعرفنا بحسن الخلق أن نتأمل هدي النبي ﷺ في المعاملة اليومية. أخبر أنس رضي الله عنه أنه خدمه عشر سنين، فما قال له «أفّ» قط، ولا لشيء فعله: لم فعلته؟ ولا لشيء لم يفعله: ألا فعلت كذا؟ [٣]

عشر سنين من المعاشرة تكشف ما لا تكشفه مقابلة عابرة. ويمكن أن نتأمل في هذا الخبر كيف تجتمع التربية مع الرحمة، وكيف يستغني التوجيه عن الإهانة وكثرة اللوم. وليس المراد إلغاء التعليم

أو ترك الخطأ دون إصلاح؛ وإنما أن نسأل أنفسنا: هل نحسن تعليم من تحت أيدينا؟ وهل تصحب توجيهنا رحمة، أم نحمل من أمامنا ضيقنا وتعبنا؟

وقد يقول أحدنا: أعرف هذا كله، ولكن طبعي سريع الغضب، أو نفسي شديدة التعلق بحقها، أو لساني اعتاد الجواب الحاد. والاعتراف بالطبع بداية نافعة إذا أعان على معرفة ما يحتاج إلى مجاهدة. لكنه يضر حين يصبح عذراً دائماً نغلق به باب التغيير. فليس كل ما ألفناه واجب البقاء، وليس تعثر المحاولة الأولى حكماً على ما نستطيع تعلمه بعد ذلك.

قال رسول الله ﷺ:

«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يَصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ».^[٤]

في هذا توجيه إلى بذل السبب ورجاء العون. والتصبر يقتضي أن نحاول حمل النفس على الصبر، ولو لم تجد سهولته من أول مرة. قد يبدأ ذلك بتأخير جواب غاضب حتى يهدأ صاحبه، أو بإتمام الاستماع قبل الاعتراض، أو بالامتناع عن إعادة إهانة سابقة في كل خصومة. هذه أمثلة على مجاهدة يمكن أن نبدأ بها، وليست ضماناً بأن يزول ضعفنا سريعاً أو أن تخلو حياتنا من الزلل.

والدعاء يصحب هذه المجاهدة. ندعو قبل الموقف أن يوفقنا الله، ونستعين به حين نثقل الطاعة على النفس، ونستغفره إذا أخطأنا، ونشكره إذا أعاننا على خير. ولا ننتظر أن تصبح الأخلاق سهلة كلها حتى نعمل بها؛ فكثير من الخير نحتاج أن نصبر على فعله حتى نألفه. والتدرج في التعلم لا يعني الرضا بالأذى أو تأجيل التوبة منه.

كذلك لا يصح أن نجعل رضا الناس المقياس الوحيد لأخلاقنا. فقد يغضب إنسان لأننا رفضنا أن نعينه على ظلم، وقد يلومنا آخر لأننا طالبناه بحق. نستطيع أن نثبت على الحق ونحفظ أدب الكلام، وأن نرفض الطلب دون احتقار صاحبه. وليس الرفق أن نترك الضعيف بلا نصره، ولا العفو أن نلزم المظلوم بالتنازل عما له. إنما نحتاج إلى بصيرة تضع اللين والحزم في موضعهما، وتمنع رغبتنا في الانتصار لأنفسنا من أن تتحول إلى عدوان.

وإذا أخطأنا في حق أحد، لم يكف أن نحزن على صورتنا في عينيه. نحتاج أن ننظر إلى الأذى الذي أصابه، وأن نصلح ما نستطيع إصلاحه. ومن صدق الاعتذار ألا نجعل إساءتنا خطأه، وألا نطالبه بأن ينسى الألم فور سماعه كلماتنا. قد يحتاج إصلاح الثقة إلى وقت تظهر فيه استقامة المعاملة. وحين نحاسب أنفسنا على هذا، فنحن نطلب التوبة والإصلاح، لا اليأس من أنفسنا ولا الانشغال الدائم بجلدها.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

المصدر: سورة الشمس، الآية ٩.

تزكية النفس عمل نحتاج إليه ما بقينا، وليست شهادة يمنحها الإنسان لنفسه إذا أحسن موقفًا أو ترك عادة. وربما فتح الله لنا باباً من الخير وبقيت أبواب تحتاج إلى إصلاح. فمن كان كريماً فليتفقد لسانه، ومن كان صادقاً فليتفقد رفقه، ومن كان حليماً فليتفقد عدله. لا لنكر الخير الذي أعاننا الله عليه، ولكن لنشكره عليه، وألا نستعمله ستاراً لما لم نصلحه بعد.

سنحتاج في هذه الرحلة أن نعود إلى المواقف الصغيرة التي تتكرر في أيامنا. كيف نستقبل عذراً؟ وكيف نختلف دون أن نفتري؟ وماذا نفعل حين لا يشكرنا من أحسنّا إليه؟ ثم نسأل أنفسنا بصدق: أي خلق يحتاج مني اليوم إلى عناية؟ قد تكون الخطوة التي أقدر عليها اعتذاراً مؤجلاً، أو حقاً أؤديه، أو عادة في الكلام أكف عنها. وما أجمل أن يقترن رجاؤنا بحسن الخاتمة بحرصنا على إحسان العمل الذي بين أيدينا.

اللهم إنا نرجو أن تعيننا على أنفسنا، وأن تجعل علمنا نافعاً لنا، وأخلاقنا أرفق بعبادك. ارزقنا صدقاً لا نخون معه أمانة، وعدلاً لا يفسده غضب، ورحمة تظهر في معاملتنا. واغفر لنا ما خفي علينا

من عيوبنا، وما عرفناه ثم ضعفنا عن إصلاحه، ووقفنا لتوبة
صادقة وعمل صالح.

ومن دعاء نبينا ﷺ:

«اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا
وَمَوْلَاهَا». [٥]

الكتاب الأول — ماهية الخلق ومكانه من الدين

الفصل ١ — الخلق والخلق

يرى الإنسان صورته في المرآة، فيعرف ما استقام من ظاهرها وما احتاج إلى عناية. أما صورته الباطنة فلا تظهر له بهذه السرعة؛ تكشفها الكلمة التي تخرج منه عند الغضب، والطريقة التي يعامل بها من لا يرجو منه نفعاً، وموقفه حين يقدر على الانتصار لنفسه. تلك الصورة الباطنة هي ميدان الأخلاق. وقد فرّق أهل اللغة بين الخلق، وهو الهيئة الظاهرة، والخلق، وهو الهيئة الراسخة التي تصدر عنها الأفعال. وليس المقصود بالرسوخ أن الإنسان مسلوب القدرة على التغيير، وإنما أن الفعل إذا تكرر حتى سهل على النفس صار أقرب إلى السجية.

وللغزالي في «إحياء علوم الدين» تحرير نافع لهذا المعنى؛ فهو يعرف الخلق بأنه هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، ثم يفرّق بين الفعل نفسه، والقدرة عليه، والعلم به، والصفة التي تحمل صاحبه عليه. فليس كل من عرف فضل السخاء سخياً، ولا كل من ملك المال باذلاً، ولا من بذل مرة لعارض قد استقرت فيه السماحة. وإنما ننظر إلى ما يتكرر من عمله، وإلى الباعث الذي يقوده إليه.^[١]

وهذا الفرق يحميننا من وهمين متقابلين: أن نكتفي بمعرفة المحاسن كأن معرفتها تحقق بها، أو أن نياس من أنفسنا لأن الخير لم يصبح سهلاً بعد. فالمشقة في بداية التعلم ليست دليلاً على فساد القصد؛ قد يتكلف المرء إمساك لسانه ابتغاء مرضاة الله، فيكون ذلك من المجاهدة المحمودة. والفرق بين هذا وبين التصنع للناس في المقصد: أتحمل نفسي على الخير لأقوم بحق الله وحقوق عباده، أم لأصنع صورة تخالف معاملتي في الخفاء؟ والسؤال لا يدعونا إلى تفتيش مرهق عن كل خاطر، بل إلى تصحيح النية ومواصلة العمل.

لهذا لا يكفي أن يفعل المرء فعلاً حسناً عابراً ثم يحكم لنفسه بحسن الخلق. قد يتصدق الإنسان مرة ثم يبقى الشح غالباً عليه، وقد يكظم غيظه في مجلس ثم يطلقه على أهله إذا خلا بهم. الخلق يعرف من الاتجاه الغالب، ولا يعني ذلك عصمة صاحبه من الزلل. فالحليم قد يغضب، والكريم قد يضيق، والصادق قد يخطئ في العبارة؛ لكن علامة الصدق في طلب الفضيلة أن يسرع إلى الرجوع، وألا يجعل الزلة مذهباً يدافع عنه.

وإذا كانت الأخلاق صورة باطنة، فإن إصلاحها يبدأ من القلب ولا يقف عنده. الرحمة التي لا يظهر أثرها في معاملة الضعيف دعوى ناقصة، والعدل الذي يغيب عند الخصومة لم يشتد عوده بعد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. جمع

الأمر الإلهي أصولاً تصلح بها المعاملة، وجمع النهي أصولاً يفسد بها الإنسان نفسه ويؤذي غيره.

لا ينفصل الظاهر عن الباطن. فكل مرة يحمل الإنسان نفسه على الصدق مع مشقته، أو على الصمت حين يخشى أن يظلم، يضع في نفسه لبنة جديدة. والعمل المتكرر يعلم القلب، كما أن القلب الصالح يمد العمل. ومن هنا كانت تربية الخلق سيراً بين الداخل والخارج: نية تصحح، وفعل يُدرّب، وخطأ يُستغفر منه، وحق يُعاد إلى صاحبه.

اختر موقفاً تكرر في أسبوعك وكشف جانباً من خلُقك: حديثاً مع أهلك، أو خلافاً في العمل، أو تعليقاً كتبته. دون ما وقع كما هو، بلا تبرير ولا قسوة على النفس. ثم اسأل: أي صورة باطنة كشفها هذا الفعل؟ وما الفعل البديل الذي أستطيع تكراره حتى يقوى؟

الفصل ٢ — الفطرة والطبع والعادة والاكتساب

يولد الناس متفاوتين في الطباع. فمنهم من يسهل عليه الهدوء، ومنهم من تسرع إليه الحدة، ومنهم من يبذل المال بسماحة، ومنهم من يحتاج إلى مجاهدة طويلة قبل أن يفارق ما في يده. وقال النبي ﷺ للأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».^[٧] شهادة تدل على قدر الخصلتين، وتدعو من وجدتهما في نفسه إلى الشكر، ومن احتاج إليهما إلى المجاهدة.

لكن اختلاف الطبع لا يلغي التكليف. من كانت نفسه هادئة يشكر الله على ما يسر له، ثم يحذر أن يتحول هدوؤه إلى برود عن نصرة الحق. ومن كان سريع الغضب لا يجعل طبعه حجة على أذية الناس، بل يعرف الموضع الذي يبدأ منه علاجه. إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكنه لم يجعل ما ألفتة النفس ميزاناً للصواب والخطأ.

وقد ناقش الغزالي من يحتاج بالطبع لإغلاق باب الإصلاح، وبين أن المقصود بهذيب الغضب والشهوة ليس استئصالهما، وإنما ضبطهما حتى تنقادا لما ينبغي. فالغضب قد يعين على دفع ظلم، وتبقى المجاهدة في ألا يحمل صاحبه على ظلم آخر، والرغبة في المال قد تبعث على كسب مباح، ويحتاج المرء إلى منعها من الخيانة والشح. كما يذكر تفاوت الناس في الاستعداد وفي قوة العادة، ولذلك لا تتساوى مشقة التغيير ولا سرعته عند الجميع.^[٨]

ومن ثمرات هذا الفهم أن نطلب تقدماً يمكن ملاحظته، لا انقلاباً مفاجئاً في الشخصية. من اعتاد مقاطعة الآخرين يبدأ بإتمام الاستماع، ومن تعود الجواب الجارح يتعلم عبارة واضحة لا إهانة فيها. وهذه أمثلة تطبيقية، لا وصفات منقولة عن الغزالي، ولا مقاييس شرعية يوزن بها الناس. وقد يظل في النفس نفور من بعض المواقف مع استقامة الفعل فيها؛ فلا نؤجل أداء الحق حتى نحبه، ولا نحكم بفشل المجاهدة لأننا ما زلنا نحتاج إليها.

العادات جسور بين الطبع والخلق المكتسب. قد يبدأ الإنسان بتأخير جوابه دقيقة واحدة حين يغضب، ثم يتعلم الخروج من موضع النزاع حتى يهدأ، ثم يعتاد ألا يرسل رسالة وهو مضطرب. هذه الأفعال صغيرة في ظاهرها، لكنها تعيد ترتيب الطريق الذي تسلكه النفس. وقد قال النبي ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».^[٩] والتصبر تكلف الصبر بقصد صادق، ثم يأتي عون الله لمن بذل السبب.

ليست المجاهدة تمثيلاً. التمثيل أن يظهر الإنسان للناس ما لا يريد أن يكون عليه، أما التدريب فهو أن يفعل ما يحبه الله وهو يعلم أن نفسه لم تألفه بعد. من أجبر نفسه على الاعتذار الصادق لا ينافق؛ بل يردها إلى الحق. ومن تدرب على البذل مع شدة شحه لا يخدع الناس؛ بل يعالج مرضاً يريد الخلاص منه.

ولا يحدث التغيير بخط مستقيم. قد يتحسن المرء أياماً ثم يعود تحت ضغط شديد إلى عاداته الأولى. المطلوب ألا يجعل الانتكاس حكماً نهائياً. يتوب، ويصلح أثر الخطأ، ويراجع السبب الذي فتح الباب، ثم يعود إلى التدريب. ومع الزمن تتغير سرعة الرجوع، وتقل شدة الأذى، ويصبح الخير الذي كان ثقيلاً أيسر بإذن الله.

اكتب خلقاً يسهل عليك، واحمد الله عليه من غير تزكية لنفسك. ثم اكتب خلقاً يشق عليك، وحدد له فعلاً واحداً قابلاً للملاحظة.

لا تقل: سأكون حليماً؛ بل قل: إذا اشتد النقاش فلن أقاطع حتى يتم صاحبي كلامه.

الفصل ٣ — من النية إلى السجية

النية أول الطريق، لكنها ليست الطريق كله. قد يصدق الإنسان في رغبته أن يكون رحيماً، ثم تخونه عاداته حين يضيق وقته. وقد يريد العدل، ثم يختلط طلب الحق بحب الغلبة. لهذا تحتاج النية إلى علم يكشف لها مواضع الخطأ، وإلى عمل يثبتها، وإلى محاسبة تمنع النفس من الاكتفاء بحسن قصدها.

ومن هنا تظهر دقة تفريق الغزالي بين العلم بالخلق وبين حصوله في النفس. قد يحسن المرء وصف الحلم ويضيق بأول مخالف، ويحفظ أبواب السخاء ويستثقل أداء دينه. ليس النقص هنا في المعلومات وحدها؛ إنه في الانتقال من المعرفة إلى الاستجابة المتكررة. [١٠]. والعلم النافع لا يُستغنى عنه، لكنه يطلب عملاً يصدّقه: أن يعود الإنسان إلى موضع العيب بعد أن عرفه، فيغير فعلاً محدداً، ثم يراجع ما تغير وما بقي. ولا يقتضي هذا أن ينشغل بنفسه عن الناس، بل أن يصل إليهم أثر ما تعلمه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. لم يجعل الصدق شعوراً خفياً فحسب، بل صحبة وموقفاً وانتماءً عملياً. وقال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن

الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً». ^[١١]. لفظ «يتحرى» يفتح باب التدريب: يبحث عن الصدق، ويتقصده، ويراجع عبارته، ولا يرضى من نفسه بالتساهل.

تتكون السجية حين تتكرر الاستجابة الصحيحة حتى تصبح أقرب إلى النفس. وليس معنى ذلك أن صاحبها يستغني عن المراقبة. فكم من خلق قوي في زمن الرخاء ثم امتحنته الخسومة أو الشهرة أو المال. المؤمن يسأل الثبات، ويعرف أن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء، كما صح عن النبي ﷺ. ^[١٢]. فلا يتكل على عمل سابق، بل يسأل الله الثبات.

ومن علامات سلامة الطريق أن يصبح إصلاح الأثر جزءاً من الخلق. فإذا أخطأ الصادق لم يزور القصة ليحفظ صورته، وإذا جار العادل على إنسان لم يمنعه الحياء من رد الحق، وإذا قسا الرحيم اعتذر ولم يشترط على المجروح أن يبرئه فوراً. الأخلاق لا تظهر فقط في ندرة الخطأ، بل في طريقة التعامل معه بعد وقوعه.

ينبغي كذلك أن يفرق المرء بين السجية وبين الصورة الاجتماعية. قد يتقن اللطف مع الغرباء لأنه ينتظر تقديرهم، ثم يثقل عليه مع أهله لأنهم يرونه بلا إعداد. وقد يصبر أمام مديره ويشتد على من يعمل تحته. هذه الفروق لا تدعونا إلى اليأس، لكنها تكشف أن

الخلق لم يتحرر بعد من حساب المصلحة. وكلها اتسعت دائرة الإحسان لمن نرجو منه ولمن لا نرجو، اقترب العمل من الصدق. راقب خلقاً واحداً في ثلاث دوائر: البيت، والعمل، والطريق أو الفضاء الرقي. إذا اختلفت استجابتك، فلا تكتف بالسؤال: أين كنت أفضل؟ اسأل: ما المصلحة أو الخوف الذي غير سلوكي؟

الفصل ٤ — حسن الخلق مع الله والنفس والخلق

يكثر استعمال حسن الخلق في الحديث عن معاملة الناس، وهذا حق، لكنه لا يستوفي أصل الباب. فالعبد مع ربه قائم على الإيمان والتسليم والمحبة والخوف والرجاء والشكر والصبر. وليس المقصود أن نصف علاقة العبد بربه بألفاظ مخترعة، بل أن نلتزم بما جاء به الوحي: يعبد الله وحده، ويصدق خبره، ويقبل حكمه، ويحسن الظن به، ويستحي منه، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه.

ويكشف ابن رجب خطأً دقيقاً في فهم التقوى: أن يعتني الإنسان بحق الله الذي يخطر له من العبادة، ويغفل عن حقوق عباده. وعند شرحه الوصية بحسن الخلق يبين أن مخالقة الناس بالحسن من خصال التقوى، وأنها لا تتم دونها.^[١٣] فليست أمانة العمل وصدق الحديث وترك أذى الأهل أبواباً جانبية بعد الفراغ من التدين؛ إنها من العمل الذي نتقرب به إلى الله. ولا يصح في

المقابل أن نجعل حسن المعاملة بديلاً عن الإيمان والفرائض؛ المقصود جمع ما فرقته الغفلة، لا إقامة عبادة مكان عبادة.

ومع النفس يكون حسن التدبير لا اتباع كل شهوة ولا إهلاكها. للنفس حق في الراحة والطعام المباح والأمن، وعليها واجب في الطاعة وكف الأذى. وقال سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه». فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «صدق سلمان». [١٤].

ومع الخلق تتسع الدائرة: الوالدان، والزوج، والولد، والجار، والعامل، والمخالف، ومن أساء، ومن طلب حقه. لا تعني المعاملة الحسنة التسوية بين جميع الأحوال، فلكل علاقة حقوقها، وقد يحتاج المقام إلى عفو، وقد يحتاج إلى إقامة عدل، وقد يكون الصمت حكمة، وقد يكون بيان الحق واجباً. الميزان هو هدي الشرع، لا راحة النفس وحدها ولا رضا الناس وحده.

هذه الدوائر تتصل بعضها ببعض. من صدق افتقاره إلى الله طلب منه العون قبل أن يواجه ضعفه. ومن حفظ نفسه من الحرام استطاع أن يعامل الناس بقلب أقل اضطراباً. ومن أدى حقوق الخلق وجد أثر العبادة في حياته. أما من فصل بينها، فقد يطيل

الصلاة ثم يطلق لسانه في أعراض الناس، أو يتحدث عن الرحمة ثم يظلم أهل بيته.

جاءت النصوص لتمنع هذا الانفصال. قال الله تعالى في الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».^[١٥] جعل الإيمان باليوم الآخر حاضراً في اختيار الكلمة، لأن الأخلاق ثمرة اعتقاد وليست قشرة منفصلة عنه.

اسأل نفسك في نهاية اليوم: ما حق لله قصرت فيه؟ وما حق لنفسي أضعته أو دلتها فيه؟ وما حق لإنسان بقي في ذمتي؟ اختر حقاً واحداً وأدّه قبل أن تضيف إلى قائمتك عملاً جديداً.

الفصل ٥ — الأخلاق ثمرة التوحيد والإيمان والتقوى

التوحيد يحرر القلب من عبودية نظر الناس. من عرف أن الله يراه لم يحتاج إلى جمهور حتى يكون أميناً، ولم يتبدل عدله لأن الخصم ضعيف لا يستطيع أن يشكوه. والإيمان بالجزاء يجعل الكلمة محسوبة، والحقوق باقية وإن نسيها أصحابها، والعمل الخفي محفوظاً وإن لم يشكر عليه أحد.

ومن شواهد هذا الجمع خاتمة «العقيدة الواسطية»؛ فقد ذكر ابن تيمية الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وصلة القاطع،

والعطاء، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، ثم النهي عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق. [١٦]. ليست هذه الخاتمة زينةً منفصلة عن الاعتقاد؛ بل فيها بيان لما يصحبه من هدي وعمل. ومن التطبيق الذي نأخذه منها أن يمتحن المرء أثر علمه في طريقته مع من لا يوافقه أو لا يقدر على مكافأته: هل حمله العلم على تواضع وعدل، أم اتخذته وسيلة إلى تعظيم نفسه واحتقار الخلق؟

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. ربط الخطاب بين التقوى والقول السديد، ثم بين القول وصلاح العمل. فالكلمة ليست تفصيلاً صغيراً خارج الإيمان؛ قد تحفظ بيتاً، أو تصلح خصومة، أو ترد مظلمة، وقد تفعل عكس ذلك.

والتقوى تمنع الإنسان من تحويل الأخلاق إلى وسيلة للثناء. قد يكون رفيقاً لأنه يخشى فقد العمل، أو متواضعاً أمام صاحب السلطة، ثم تتغير لهجته مع من لا يخافه. أما من راقب الله فله ميزان أبقي من المنفعة العاجلة. ليس معنى ذلك أن نيته تصفو بلا مجاهدة، بل إنه يجد مرجعاً يعود إليه كلما اكتشف حظ نفسه.

كمال الإيمان يظهر في المعاملة. قال النبي ﷺ: «أَكَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِمَانًا أَحْسَنَهُمْ خَلْقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا». ^[١٧]. وفي اقتران العموم بأهل البيت تنبيه لطيف؛ فقد يسهل على المرء أن يتجمل في اللقاء القصير، أما العشرة الطويلة فتكشف مقدار الصبر والوفاء والرفق.

ولا يعني هذا أن كل زلة تخرج صاحبها من الإيمان، ولا أن حسن المعاملة الظاهر يغني عن صحة الاعتقاد والعبادة. المعنى أن شعب الإيمان يصدق بعضها بعضًا، وأن النقص في الخلق نقص يحتاج إلى توبة وعلاج. وكلما قوي اليقين بأن الله يسمع ويرى، صار الإنسان أقدر على رد نفسه عن الفحش حين لا يمنعه أحد من الناس.

اختر موقفًا لا يطلع عليه عادة إلا الله: أمانة مالية، أو حديثًا خاصًا، أو رسالة تستطيع حذفها، أو حقًا لصاحب غائب. اجعل هذا الموضع تدريبك اليومي على الصلة بين التوحيد والخلق.

الفصل ٦ — العبادات ومدرسة الأخلاق

لم تشرع العبادات حركات منفصلة عن أثرها في القلب والسلوك. الصلاة صلة بالله واستعانة به، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر. والصيام إمساك عن المفطرات، وتدريب على ترك ما اعتادته النفس؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به،

فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». [١٨]. لا يسقط الحديث فرض الصيام عن المسيء، لكنه يوقظه إلى الثمرة التي ضيعها.

والزكاة طهارة للمال والنفس. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. حين يخرج المال من اليد يتعلم القلب ألا يجعل الملك حاجزاً بينه وبين الرحمة. ومن أدى القدر الواجب ثم استعلى على الفقير أو آذاه بالمن، احتاج أن يرجع ما بقي في نفسه من كبر وشح.

والحج مدرسة ظاهرة لضبط النفس؛ قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. الزحام والتعب واختلاف الطباع مواضع يظهر فيها أثر العبادة. وليس النجاح أن يتم الإنسان المناسك فحسب، بل أن يحفظ لسانه ويده ما استطاع.

ومع ذلك لا ينبغي أن نحول العبادة إلى اختبار سريع نحكم به على الناس. قد يصلي إنسان ويجاهد خلقاً سيئاً لم يتخلص منه بعد، وقد يخطئ ثم يتوب. الواجب أن نحاسب أنفسنا على الثمرة، وألا نجعل نقص غيرنا ذريعة للازدراء. فالكبر قد يدخل على من ينتقد سوء الخلق كما يدخل على المسيء نفسه.

أقرب طريق للانتفاع بالعبادة أن يدخلها المرء بحاجة محددة. قبل الصلاة يسأل الله أن يصلح لسانه، وفي السجود يستغفر من مظلمة، وبعد الصيام يراقب ما تغير في اندفاعه. وحين يخرج صدقة يتفقد قلبه من المن والأذى. بهذا تنتقل العبادة من جدول الأعمال إلى قلب الحياة.

اربط عبادة ثابتة بخلق واحد هذا الأسبوع. فإذا توضأت تذكرت كلمة تحتاج إلى تطهير، وإذا صمت أمسكت عن جدال معين، وإذا تصدقت أخفيت صدقتك ما استطعت. المقصود تربية النفس، لا اختراع عبادة أو عدد لم يرد.

الفصل ٧ — لماذا يحسن الإنسان في باب ويسيء في آخر

قد يكون الرجل أميناً في المال لكنه حاد اللسان، وقد تكون المرأة رحيمة بأبنائها لكنها لا تنصف من تختلف معه، وقد يبذل المرء بسخاء ثم يحب أن يسمع الثناء على عطائه. هذا التفاوت واقع في النفوس، وسببه أن الأخلاق ليست قوة واحدة بسيطة. لكل خلق دوافعه وآفاته ومواطن اختباره، ولكل إنسان تاريخ من العادات والبيئات والمصالح.

وردّ ابن القيم حسن الخلق إلى أربعة أصول: الصبر والعفة والشجاعة والعدل، وبين ما ينشأ عنها من الفضائل.^[١٩] وهذا يعين على فهم تفاوت الأخلاق في الشخص الواحد؛ فقد يقوى عنده

البذل ولا يقوى احتمال الأذى، أو يحسن الصمت ولا يحسن نصرة المظلوم. ولا يعني اجتماع فضيلة ورذيلة أن كل خيره زائف، وإنما يدعو إلى تكميل ما نقص. فليكن المعروف الذي يسره الله له سبباً لشكره، لا حجة يسكت بها من ينهبه إلى أذاه في باب آخر.

معرفة هذا التفاوت تمنع حكيم خاطئين. الأول أن نلغي خير الإنسان كله بسبب نقص واحد، والثاني أن نجعل فضيلته ستاراً يحمي سائر عيوبه. العدل أن نشكر الخير وننسب الفضل إلى الله، ثم نسمي الخطأ باسمه ونعالجه. ومن أخطر الحيل أن يقول المرء: أنا صريح، ليبرر القسوة؛ أو أنا طيب القلب، ليتهرب من رد الحقوق. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. النهي عن التزكية لا يعني إنكار النعمة، بل يمنع الاطمئنان إلى صورة نصنعها لأنفسنا. قد يعرف الناس عنك الكرم، لكن الله يعلم ما خفي من لسانك. وقد يظنونك قليل العمل، والله يعلم جهاداً لا يراه أحد.

ولهذا كانت المحاسبة محددة لا عامة. قولك: أنا سيئ الخلق يورث غموضاً وقد يفتح باب القنوط. أما قولك: أرفع صوتي حين أشعر أن رأيي لم يفهم، فهو وصف يمكن التعامل معه. تحدد المحفز، وتضع استجابة بديلة، وتعتذر ممن أصابه الأذى، ثم تراجع التقدم.

الإنسان بحاجة كذلك إلى من يبصره بنفسه. قد يخفى عليه ما اعتاده، أو يفسر صمت الناس رضا وهم إنما يخافون ردة فعله. صاحب الصادق أو الزوج الناصح أو المربي الحكيم مرآة، بشرط أن يطلب الإنسان النصيحة مستعداً لسماعها، وألا يحول كل ملاحظة إلى محاكمة لقائلها.

اطلب من شخص أمين أن يذكر لك خلقاً يحمدك فيك وخلقاً يتأذى منه. لا تجادله في الجلسة نفسها. اشكره، ثم اترك لنفسك يوماً تراجع فيه الأمثلة. خذ من كلامه ما وافق الحق، ولا تجعل طريقته في التعبير سبباً لإسقاط المعنى.

الفصل ٨ — الميزان الشرعي لا المزاج والعرف وحدهما

تختلف الأعراف في صور التحية والضيافة والاعتذار وحدود المباشرة في الكلام. وقد يعد قوم فعلاً من حسن الأدب، ويراه غيرهم جفاء. للشرعية اعتبار بالعرف الصحيح؛ لأنها جاءت بمصالح الناس ولم تلغ اختلاف بيئاتهم. لكن العرف لا يحل ظلماً، ولا يجعل الكذب صدقاً، ولا يحول الغيبة إلى نصيحة لمجرد شيوعها.

وفي «الرسالة» يقرر الشافعي أنه لا يجوز القول في الحلال والحرام إلا من جهة العلم، ثم يذكر وجوه الاستدلال.^[٢٠] وفي هذا أصل لأدب الحكم قبل أدب العبارة؛ فقد يلين صوت الإنسان وهو

يحرم على غيره ما لا يعلم، أو يذم تصرفاً لأنه خالف ذوقه لا لأنه خالف الشرع. ومن الإنصاف أن يقول: هذا يؤذيني أو لا يناسبني، حين يكون الحديث عن حاجته الخاصة، وألا ينقل كل رغبة إلى مرتبة الحكم الديني. وإذا جهل حكماً سأل أهله، ولم يجعل قوة تأثيره دليلاً يغنيه عن العلم.

الميزان الشرعي يحفظ الأخلاق من أن تصبح ذوقاً شخصياً. فليس كل ما يريحنا خلقاً حسناً؛ قد نحب من يوافقنا ولو جار، ونصف بالحدة من يطالب بحق. وليس كل ما يؤلمنا ظلماً؛ قد تكون النصيحة الصادقة ثقيلة، وقد يكون منع الإنسان من شهوة رحمة به. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ويمنع الميزان الشرعي طرفاً آخر: استعمال الحق بغير خلق. قد يكون المعنى الذي يقوله الإنسان صحيحاً، لكنه يختار له وقتاً يفضح صاحبه، أو عبارة تكسر كرامته، أو يضيف إليه ما ليس منه. صحة القضية لا تبيح الكذب والفحش. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن المواضع الدقيقة التوازن بين العفو والعدل. العفو فضل عظيم، لكنه حق للمظلوم في حقه الخاص، ولا يجوز أن يُضغَط عليه

حتى يتنازل. وقد يكون في إقامة الحق حماية لآخرين من تكرر الأذى. وفي المقابل قد تتحول المطالبة بالحق إلى شهوة انتقام تتجاوز الحد. الميزان يسأل: ما الحق الثابت؟ وما القدر المشروع؟ وما النية التي تحركني؟

الرجوع إلى الوحي يحتاج علماً وتواضعاً. لا يكفي أن نجد نصاً يوافق غضبنا ثم نترك النصوص التي تضبطه. تُجمع الأدلة، ويُفهم الخاص والعام، وتُرد المسألة إلى أهل العلم إذا أشكلت. وحسن الخلق هنا أن يقبل الإنسان أن يكون فهمه الأول ناقصاً، وأن يرجع إذا بان له الصواب.

في خصومة قائمة، اكتب في ورقة منفصلة: حقي الثابت، والعبارة التي أريد قولها، والنتيجة التي أرجوها. راجع الثلاثة: هل في الحق زيادة؟ هل في العبارة إهانة؟ هل النتيجة إصلاح أم مجرد غلبة؟ ثم خذ بالأقرب إلى العدل والإحسان.

الكتاب الثاني — القرآن وبناء الإنسان الخُلقي

مدخل الكتاب

لا يعرض القرآن الأخلاق قائمة منفصلة عن الإيمان، بل يبني بها الإنسان في عبادته وبيته وخصومته وماله وكلامه. يأمر بالعدل حين تميل النفس، وبالعفو حين تقدر، وبالصدق حين تكون النجاة العاجلة في غيره. ويقص أخبار الأنبياء ليرى المعنى في موقف حي، ثم يرد القلب إلى الله؛ فمنه الهداية، وإليه المصير، وبين يديه توزن الأعمال.

سنقرأ في هذا الكتاب أصولاً جامعة، لا صفات متناثرة. الرحمة تضبط القوة، والعدل يمنع الهوى، والصبر يحفظ العمل، والصدق يصون القلب واللسان. وكل أصل منها يحتاج إلى أخلاق تعينه، ويحميه من صورة زائفة تشبهه في الظاهر وتخالفه في الباطن.

الفصل ٩ — وإنك لعلی خلق عظیم

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. هذا ثناء من الله، لا يحتاج إلى مبالغة بشرية تزيد عليه. والآية خاصة في خطاب النبي ﷺ، نقرأها لنعرف كمال هديه ونقتدي به، ولا نجعلها شهادة لأنفسنا أو عنواناً يرفعنا إلى مقام ليس لنا.

وفسر الطبري الخلق العظيم بأدب القرآن الذي أدب الله به نبيه ﷺ، وذكر الإسلام وشرائعه في بيان معناه. ^[٢١]. فلا تضيق دلالة الآية في لطف اجتماعي منفصل عن طاعة الله؛ يدخل فيها امثال أمره والوقوف عند حدوده. وهي ثناء على النبي ﷺ، نقرأه لنقتدي به، ولا ندعي لأنفسنا ما أثنى الله به عليه. ومما يفتح باب الاقتداء أن نسأل بعد القراءة: أي أمر من القرآن غاب أثره عن معاملتي؟ فالانتفاع بالثناء النبوي ليس في ترديده وحده، بل في محبة صاحبه واتباع هديه.

جاء وصف الخلق عظيماً لأن هديه ﷺ جمع عبودية القلب واستقامة العمل وحسن المعاملة. قالت عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خلقه: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن». ^[٢٢]. لم ترد أنه كان يقرأ القرآن فحسب، بل دل جوابها الموجز على أن أوامره ونواهيه وآدابه ظهرت في سيرته.

تمننا الآية من اختزال الخلق في اللطف الذي يوافق المزاج. كان من خلقه الرحمة، ومن خلقه إقامة العدل، ومن خلقه الصبر على الأذى، ومن خلقه البيان حين يجب البيان. فالأقتداء لا يكون باختيار ما يريحنا من سيرته وترك ما يطالبنا برد حق أو ضبط شهوة.

اختر أمرًا قرآنياً واحداً تعرفه، ثم اسأل: أين يظهر في معاملتي؟ لا تنتقل إلى موعظة جديدة حتى تحدد فعلاً واحداً يقربك من الامتثال.

الفصل ١٠ — الرحمة أصل جامع

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. كانت الرسالة رحمة بما جاءت به من توحيد وهداية وعدل، وبما أنقذت به الإنسان من عبودية الهوى والخلق. والرحمة في معاملة الناس تحمل على إرادة الخير وبذل سببه، وقد تظهر في العفو، وقد تظهر في منع الظلم.

قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. يربط القرآن لين المعاملة برحمة من الله، فيقطع طريق العجب. إذا رق قلبك أو لان قولك فاحمد الله، ولا تر نفسك صاحب فضل على من أحسنت إليه.

ومن تمام الرحمة ألا تتحول إلى تضييع للحقوق. رحمة المعتدي تكون بكفه عن عدوانه، ورحمة المظلوم تكون بنصرته، ورحمة الأسرة تكون بإزالة الضرر لا بإخفائه تحت كلمات جميلة. والقلب الرحيم يسأل عن عاقبة فعله، لا عن الراحة العاجلة وحدها.

فتش عن شخص يحتاج منك رحمة عملية: وقتاً، أو استماعاً، أو نفقة، أو كف أذى. افعل ما تستطيع من غير منٍّ، ثم اسأل الله أن يرحم ضعفك كما تحب أن يرحمك.

الفصل ١١ — العدل مع الموافق والمخالف

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. يأتي امتحان العدل الحقيقي حين يشتد البغض. أما إنصاف من نحب، فكثيراً ما توافقه مصلحة النفس.

العدل في الخبر ألا ننسب إلى خصمنا ما لم يقل. وفي الحكم أن نزن الفعل بميزان واحد. وفي البيت ألا تكون سلطة القوي باباً لسلب حق الضعيف. وفي العمل ألا ننسب النجاح إلى من نرضى عنه ونحمل الخطأ على من لا نجه.

ولا يطلب العدل من الإنسان أن يلغي مشاعره. قد يبغض فعلاً أو يتألم من إساءة، لكن التكليف متعلق بما يقول ويفعل ويحكم. يستطيع أن يعترف بألمه، ثم يمنع الألم من إضافة تهمة أو عقوبة زائدة.

اختر خلافاً حاضراً، واكتب أقوى حجة للطرف الآخر كما يفهمها هو. إن عجزت عن عرض قوله بأمانة، فأنت تحتاج إلى الاستماع قبل الحكم.

الفصل ١٢ — الإحسان وما فوق العدل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. العدل أداء ما يجب، والإحسان يزيد عليه بفضل ورحمة. قد تدفع للعامل أجره كاملاً، فهذا حقه، ثم تشكره وتقدر تعبته وتعيّنه في حاجته، وهذا من الإحسان.

ويبين السعدي في تفسير الآية أن العدل يشمل أداء حقوق الله وحقوق العباد، ويقابل بين العدل الواجب والإحسان الزائد عليه.^[٢٣] وهذه المقابلة مهمة في ترتيب العمل، ولا يراد بها أن كل ما يسمى إحساناً في الشرع مستحب؛ فالإحسان قد يكون واجباً بحسب موضعه، كما في حديث: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».^[٢٤] فمن أدى أجره العامل لم يتفضل عليه بماله، ومن زاده من عنده بعد أداء حقه أحسن إليه. وإذا التبس هذا الفرق، مدح المرء نفسه على واجب مقصر في أدائه، وربما طلب ممن رد إليه حقه شكر المتفضل. وليبدأ طالب السخاء بما في ذمته قبل أن يتوسع في إظهار العطاء.

الإحسان لا يبطل الحدود. من أحسن إلى الناس بمال ليس له، أو سامح في حق غيره، لم يأت بفضيلة. البداية أن يعرف الإنسان ما له وما عليه، ثم يفتح من فضله ما لا يضر بحق واجب.

وقال النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»^[٢٤]. يدخل في ذلك إحكام العمل، والرفق بالخلق، وتقليل الألم، وأداء المهمة على وجه لا يخدع الناس. ومن أوسع ميادينه الأعمال الخفية التي لا ينتظر صاحبها عليها شكراً.

أدِّ اليوم واجباً اعتدت أن تفعله على الحد الأدنى، لكن أدِّه بإتقان زائد لا يراك فيه إلا الله.

الفصل ١٣ — الصبر وكظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. الكظم حبس الغيظ عن أن يتحول إلى عدوان، والعفو ترك المؤاخذه في الحق الخاص، ثم يعلو الإحسان بصاحبه درجة أخرى. وليس كل إنسان مطالباً في كل واقعة بالمرتبة نفسها، لكن لا أحد يباح له الظلم.

الغضب إحساس بشري، والمشكلة في الطريق الذي نسلكه بعده. قد يوقظنا إلى حق ضائع، وقد يعمينا فنضيف إلى الخطأ أخطاء.

قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».[٢٥].

ويقسم ابن تيمية الصبر إلى صبر على المأمور، وصبر عن المحذور، وصبر على ما يصيب الإنسان بغير اختياره.[٢٦]. وقد تجتمع هذه المعاني في موقف واحد: يتألم الإنسان من إساءة، فيصبر على ألمها، ويمتنع عن مقابلة محرمة، ويقوم بحق واجب لا تسقطه الخصومة. فلا يختزل صبره في احتمال الشعور، ولا يجعل احتماله إذناً بتعطيل العمل. هذا الفهم يعين من يظن أنه لا يستطيع الصبر ما دام يتألم؛ فقد يكون الألم حاضراً، وهو مع ذلك يجاهد نفسه ويحسن فعله.

يحتاج الصبر إلى استعداد قبل لحظة الانفعال: معرفة الكلمات التي تشعل النزاع، وتأخير القرارات، وعدم نشر ما كُتب في ذروة الغضب. فإذا وقع الخطأ، كان من الصبر احتمال مشقة الاعتذار ورد الحق.

ضع لنفسك قاعدة واحدة عند الغضب: لا رسالة، ولا قرار مالي، ولا عقوبة، حتى تهدأ وتعيد قراءة الموقف.

الفصل ١٤ — العفو والصفح والإصلاح

قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. قيد القرآن العفو بالإصلاح؛ فقد يكون العفو باب خير، وقد يشجع المعتدي إذا خلا من حكمة وضبط.

ويجمع السعدي في تفسير هذه الآية بين مراتب العدل والفضل والظلم، ويربط فضل العفو بالإصلاح.^[٢٧] فالمطالبة بالحق المشروع غير الانتقام المتجاوز، والعفو النافع غير ترك الأذى يستمر. ومن التطبيق على هذا الأصل أن نسأل عن الحق: لمن هو؟ وهل نملك إسقاطه؟ وما أثر القرار فيمن قد يتضرر بعدنا؟ ليس لأحد أن يعفو عن أموال الناس أو سلامتهم طلباً لصورة الحليم. كما لا يباح أن يتحول طلب الإنصاف إلى تشهير أو عقوبة يتولاها المرء بغير حق. إنما يطلب المظلوم حقه بالوجه المشروع، وله فضل ما يعفو عنه إذا كان في موضعه.

وفي حادثة الإفك تأذى أبو بكر رضي الله عنه من مشاركة مسطح في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، وكان ينفق عليه. فلما حلف أن يقطع نفقته، نزل قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو

بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، وأعاد إليه النفقة؛ والقصة ثابتة في صحيح البخاري، ٤٧٥٠؛ وصحيح مسلم، ٢٧٧٠. لا يحو العفو حقيقة الألم، لكنه يمنعها من أن تصبح قائداً دائماً. وللمظلوم أن يطلب حقه، وليس لأحد أن يستعمل فضيلة العفو لإسكاته. فإذا اختار العفو، كان ذلك قربى بينه وبين الله. ميز بين ثلاثة أمور في إساءة وقعت لك: حق يجب حفظه، وأذى تستطيع دفعه، وحظ للنفس تستطيع تركه. هذا التمييز أقرب إلى الإصلاح من قرار متعجل بالعفو أو الانتقام.

الفصل ١٥ — الرفق واللين وخفض الجناح

قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في شأن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. إذا كان القول اللين مطلوباً في دعوة فرعون، فما أحوج الأهل والولد والمخطئ الذي يرجى رجوعه إلى خطاب لا يغلق باب الهداية.

قال النبي ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».^[٢٨] الرفق حسن اختيار الوسيلة والوقت والعبارة، وليس ترغاً للأمر بالمعروف أو تسوية بين الحق والباطل.

ومن لطف التربية ما يذكره السعدي عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ من قبول ما سهل من أخلاق الناس، وشكر ما تيسر من

خيرهم، وعدم مطالبتهم بما يشق عليهم في المعاشرة. ^[٢٩]. وليس هذا إسقاطاً للواجبات، بل تمييز بين حق لازم وتوقع شخصي. فقد يكون صاحبك صادق المودة قليل الكلام، أو بطيء التعبير عن امتنانه، فلا تجعل طبعه مخالفة أخلاقية لأنه ليس على صورتك. ومن راحة القلب أن يعرف ما ينبغي المطالبة به، وما يحسن قبوله بسعة صدر، وما يحتاج إلى تعليم رفيق.

قد يخدع الإنسان نفسه فيسمي عجزه رفقا، أو يسمي اندفاعه غيرة. العلامة أن الرفق يقرب المقصود المشروع ويقلل الأذى، أما المداينة فتبيع الحق طلباً للسلامة أو القبول.

أعد صياغة نصيحة تنوي قولها. احذف منها وصف الشخص، وسمِّ الفعل المحدد، واذكر المطلوب بوضوح، واختر وقتاً يمكنه فيه أن يسمع.

الفصل ١٦ — الصدق والصديقية

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. الصدق موافقة الخبر للواقع، لكنه يمتد إلى صدق النية والعزم والوفاء. وقد يكف الإنسان عن الكذب الصريح ويبقى يختار نصف الحقيقة ليصنع انطباعاً مضللاً.

قال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».^[٣٠] طريق الصدق يتقوى بالتحري؛ أي بقصد الحقيقة ومراجعة العبارة والرجوع عند الخطأ.

ومن صدق الإنسان ألا يجعل اعترافه فضيلة يطلب بها الإعفاء من تبعات فعله. يقول الحقيقة، ثم يصلح أثرها، ويرد المال، ويعتذر، ويتحمل ما يترتب بالعدل.

راقب مواضع المبالغة في يومك، ولا تنتظر كذبة كبيرة. أصلح رقماً زدته، أو فضلاً نسبته لنفسك، أو عذراً أخفى السبب الحقيقي.

الفصل ١٧ — الأمانة والوفاء بالعهد

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. الأمانة ليست المال وحده؛ هي سر، ووقت، وعمل، ومسؤولية، وكلمة نقلت إلينا في مجلس خاص.

يبدأ الوفاء من وضوح الوعد. كثير من الإخلاف ينشأ من كلمات يطلقها الإنسان لإرضاء اللحظة، ثم يكتشف أنه لا يملك تنفيذها. حسن الخلق أن يتأني قبل الالتزام، وأن يخبر صاحبه إذا طراً عجز حقيقي، وألا يتركه معلقاً.

وتشتد الأمانة حين يمكن الخيانة بلا انكشاف. هنا يظهر أثر مراقبة الله: ملف يستطيع نسخه، أو مال يمر بين يديه، أو معلومة تمنحه نفعاً إن أفشاها.

اجمع الوعود المؤجلة، واختر أقدمها. نفّذه، أو تواصل مع صاحبه بصدق، ولا تستبدل الوفاء بوعد جديد.

الفصل ١٨ — التواضع وترك الفخر والخيلاء

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. الهون سكونية ووقار، لا ذل ولا ضعف. والمتواضع يعرف قدر النعمة، لكنه لا يضعها تاجاً يزدري به الناس.

وقال النبي ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». [٣١]. التواضع لله هو الذي يبقى حين لا يصفق الناس. يظهر في قبول الحق ممن هو أصغر، وفي الاعتراف بجهل مسألة، وفي خدمة الأهل، وفي ترك التقدم الذي ليس للإنسان بحق.

وقد يلبس الكبر ثوب الفضيلة. يرفض الإنسان الثناء بلسانه وهو ينتظر مزيداً منه، أو يتحدث عن تقصيره ليعترض الناس ويذكروه بفضلهم. العلاج ألا ينشغل بصناعة صورة متواضعة، بل بأداء الحق ونسبة النعمة إلى واهبها.

أقبل اليوم تصحيحاً صحيحاً بلا تبرير زائد، واشكر من ذلك عليه، ثم أصلح الخطأ بعيداً عن حديث طويل عن نفسك.

الفصل ١٩ — الحياء والعفة

قال النبي ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان».^[٣٢] الحياء خلق يحمل على ترك القبيح وأداء الحق، وليس خوفاً يمنع الإنسان من سؤال العلم أو المطالبة بحقه.

مدح الله مريم عليها السلام بالعفة، وقص خبر يوسف عليه السلام حين دعتة امرأة العزيز فاستعصم وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. لم يكن مقام العفة غياب الفتنة، بل حضور الخوف من الله في شدتها.

العفة اليوم تشمل النظر والرسالة والصورة والحديث الخاص. وقد يهون الذنب خلف الشاشة لأن صاحبه لا يرى أثره المباشر. لكن الحياء من الله لا يتبدل بتبدل المكان.

أغلق منفذاً واحداً تعرف أنه يضعف حيائك: حساباً، أو محادثة، أو خلوة رقمية، أو عادة نظر. لا تفاوض نفسك طويلاً في باب عرفت ضرره.

الفصل ٢٠ - حسن القول والجدال بالتي هي أحسن

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]. لم يأمر بالقول الحسن فقط، بل بالتي هي أحسن؛ لأن العبارات تتفاوت، وقد يكون المعنى صحيحاً وتكون طريقته باب خصومة.

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. الجدال الأحسن يحفظ الحق وكرامة المخاطب، ويترك السخرية والتعيير ونقل الكلام عن موضعه.

من حسن القول أن يفرق الإنسان بين بيان الخطأ وإذلال الخطي. الأول قد يجب، والثاني شهوة نفس. وكلما كان التصحيح علنياً اشتدت الحاجة إلى سؤال النفس: هل يتوقف الضرر بدون فضيحة؟

قبل إرسال رد مختلف فيه، اقرأه مرة بنية البحث عن الحق، ومرة بعين من سيتلقاه. احذف كل جملة لا تخدم إلا إظهار الغلبة.

الفصل ٢١ - حفظ اللسان

جمعت سورة الحجرات أبواباً من أمراض اللسان والقلب: السخرية والبهز والتنازع وسوء الظن والتجسس والغيبة. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

ويجعل ابن رجب في شرح حديث الكلام ميزاناً يجمع الفعل والترك: يُقال الخير، ويمسك عما ليس بخير.^[٣٣] ولذلك لا يكون الصمت فضيلة في كل حال؛ فقد يلزم بيان حق أو شهادة أو تحذير مشروع. والمجاهدة أن نكف ما لا يحل، وأن نقول ما يلزم بعلم وعدل. ومن التطبيق المعاصر ألا نعد مجرد صحة المعلومة إذناً بنشرها؛ فرب خبر صحيح يتعلق بستر إنسان أو أمانة أو تمناً عليها. نسأل عن صحة الكلام، وعن حقنا في قوله، وعن مقدار ما يحتاجه المقام، ثم نختار عبارة لا تزيد الأذى.

وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».^[٣٤] الصمت هنا عبادة حين يكون الكلام شراً، لكنه ليس هروباً من شهادة أو نصيحة واجبة.

تضاعف النشر الرقي أثر الكلمة. ما كان يسمعه ثلاثة قد يصل إلى آلاف، وما قيل في غضب قد يبقى بعد زواله. لذلك يحتاج المؤمن

إلى توقف قبل الإرسال، وثبت قبل النقل، وشجاعة في الحذف والاعتذار.

اجعل بين استثارة النفس والنشر مسافة. إذا تعلق الكلام بعرض إنسان أو سمعته، فلا تنشره حتى تعرف ضرورته وصدقه ومشروعية إظهاره.

الفصل ٢٢ — إصلاح ذات البين ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. المصلح لا يكون ناقلًا جديدًا للنزاع؛ يحفظ السر، ويتثبت، ويقرب موضع الاتفاق، ولا يعد بما لا يملك. وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. دفع السيئة بالحسنة قوة منضبطة، يحتاج إلى صبر، ولا يعني تمكين المعتدي من تكرار ضرره.

الإصلاح يبدأ أحياناً من تصحيح رواية كل طرف. يظن أحدهما أن الآخر قصد الإهانة، ويكون أصل الكلام مختلفاً. فإذا ثبت الحق، أعين المخطئ على الاعتذار، والمظلوم على أخذ حقه دون تعد.

إذا توسطت، لا تنقل عبارة تعرف أنها ستزيد النار. انقل المعنى الضروري بأمانة، واطلب من كل طرف فعلاً محدداً يفتح باب الرجوع.

الفصل ٢٣ — البر والصلة والإحسان إلى الضعيف

قرن الله حق الوالدين بتوحيده فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ونهى حتى عن كلمة التضجر، لأن البر يظهر في النبرة كما يظهر في النفقة.

وتسع الرحمة لليتم والمسكين وابن السبيل والجار. قال النبي ﷺ: «ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».^[٣٥] حقوق هؤلاء لا تقوم على قدرتهم على رد الجميل؛ ولهذا تكشف معاملتهم صدق الخلق.

وقد يظن الإنسان أن الإحسان فعل كبير نادر، بينما يحتاج القريب إلى اتصال، والجار إلى كف أذى، والكبير إلى صبر على تكرار حديثه، والعامل إلى أجره واحترامه.

ابداً بحق قريب لا بصورة عامة عن الرحمة. اتصل بمن انقطعت عنه، أو اقض حاجة والد، أو أزل أذى يصل إلى جار.

الفصل ٢٤ — مدارس قرآنية في الأخلاق

في سورة الحجرات مجتمع يحفظ الأخبار والأعراض والأخوة. وفي سورة النور عفة واستئذان وستر. وفي سورة الإسراء وصايا تجمع التوحيد والبر وحفظ المال والدم واللسان. وفي سورة لقمان أب يوصي ابنه بالتوحيد والصلاة والصبر والتواضع وخفض الصوت. وفي الفرقان صورة لعباد الرحمن في ليلهم ونهارهم ومعاملتهم.

هذه السور لا تفصل الخلق عن العبادة. وصية لقمان تبدأ بالنهي عن الشرك، ثم تمضي إلى بر الوالدين ومراقبة الله وإقامة الصلاة والصبر والتواضع. فالإنسان وحدة واحدة، وما في قلبه يخرج في مشيئته وصوته وطريقته مع الناس.

قراءة هذه المدارس تحتاج بطئاً. بدل أن ينهي القارئ السورة ويسأل كم صفحة قرأ، يسأل: أي أمر تعلق بي اليوم؟ وكيف أنقله إلى فعل؟ القرآن كتاب هداية، ولا تتم صحبته بكثرة التلاوة مع الإصرار على ظلم معروف.

اختر سورة واحدة من هذه السور، واكتب أوامر الخلقية بعبارتك، ثم اختر أمراً واحداً لأسبوع كامل. لا تجعل كثرة الاختيارات تمنع البداية.

الفصل ٢٥ — الرحمة والحزم والعفو وإقامة الحق

الأخلاق القرآنية متوازنة لأنها صادرة عن الحق. الرحمة لا تلغي العدل، والحزم لا يبيح القسوة، والعفو لا يسقط حقوق الآخرين، وإقامة الحق لا تفتح باب التشفي. الخلل يقع حين يأخذ الإنسان خلقاً واحداً ويستعمله في كل مقام.

وعند ابن القيم لا تعمل الفضائل متفرقة؛ فالعدل يعين على وضع الشجاعة والسخاء والحلم في مواضعها، ويحفظها من طرفي الإفراط والتفريط. ^[٣٦] والاعتدال هنا ليس نصف المسافة بين الحق والباطل، ولا تنازلاً دائماً يرضي طرفين؛ فقد يكون العدل أداء الحق كاملاً، والحزم منع الاعتداء فوراً. وإنما يطلب الإنسان فعلاً يوافق الشرع وحاجة الموقف، لا سلوكاً يبدو هادئاً في كل ظرف. فمن الخطأ تسمية عجزه عن نصره الضعيف حلماً، كما يخطئ من يسمي قدرته على الإهانة شجاعة.

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. لكل مقام ما يناسبه في حدود الشرع. وقد يكون الحزم رحمة حين يمنع أذى متكرراً، ويكون اللين حكمة حين يفتح قلباً مغلقاً.

الميزان لا يعرف من الشعور وحده. يحتاج إلى العلم بالحق، والنظر في العاقبة، ومراجعة حظ النفس. قبل العقوبة نسأل: هل هي

مشروعة ومتناسبة؟ وقبل العفو نسأل: هل يصلح أم يزيد الضرر؟
وقبل الصمت نسأل: هل يحفظ السلام أم يضيع مظلوماً؟
في قرار صعب، استشر من يجمع العلم والأمانة ولا تغلبه عاطفتك
نفسها. اذكر له الوقائع كاملة، واطلب منه أن يدلِكَ على موضع
العدل، ثم ألزم نفسك بما بان لك.

الكتاب الثالث — قدر حسن الخلق في السنة

مدخل الكتاب

تجيء السنة فتقرب المعاني القرآنية إلى القلب، وتبين منزلتها، وتضعها في كلمة جامعة أو موقف يرى. وحين يقرأ المؤمن أن حسن الخلق ثقیل في المیزان، وأنه من كمال الإيمان، لا يفهم منه وعداً منفصلاً عن التوحيد والفرائض، بل يفهم أن المعاملة باب عبادة، وأن أذى الناس ليس شأنًا هامشيًا.

الفصل ٢٦ — بعثت لأتمم صالح الأخلاق

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». [٣٧]. لم تبدأ الرسالة في أرض خالية من كل فضيلة؛ كان في الناس وفاء وشجاعة وكرم، لكنها كانت تختلط بالعصبية والرياء والظلم. فجاء الوحي يرد الفضائل إلى عبادة الله، ويهذبها بالعدل، ويمنع انحرافها. قد يكون الرجل شجاعاً لكنه ينصر قومه على الباطل، أو كريماً ليذكر، أو وفياً لعهد محرم. تمام الخلق أن يكون صالحاً في أصله ومقصده وأثره. فالشجاعة تنصر الحق، والكرم يبتغي وجه الله، والوفاء لا يعين على الإثم.

وهذا الحديث يعلمنا ألا نحتقر ما بقي في الناس من خير، وألا نقبله بلا ميزان. نقرأ الجميل، ثم نرده إلى أصله الصحيح، وننقيه من الهوى. تربية النفس ليست محواً لشخصيتها، بل توجيه لما فيها من قوى حتى تعمل فيما يحبه الله.

اختر خصلة يمدحك الناس بها، واسأل عن مقصدها وحدودها: هل تبقى إذا غاب الثناء؟ وهل تقف عندما تبدأ معصية أو مظلة؟

الفصل ٢٧ — حسن الخلق وكمال الإيمان

قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً». [٣٨]. يدل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن أثره يظهر في سلوك صاحبه.

وخصت المعاملة الزوجية بالذكر لأن البيت يكشف ما تخفيه المجالس. تتكرر المطالب، وتظهر طباع الإنسان عند التعب، ولا يبقى له ذلك الاستعداد القصير الذي يصنع به انطباعاً حسناً. فمن أراد قياساً أقرب إلى الصدق، فلينظر إلى أمان أهله من لسانه ويده.

لا يعني الحديث أن صاحب الخلق الحسن كامل من كل وجه، ولا أن الظاهر اللطيف يغني عن العقيدة والعبادة. إنه يرسم صلة

لا يجوز قطعها: كلها كمل الإيمان أثمر رحمة وعدلاً ووفاءً، وكلها رأى المؤمن خللاً متكرراً في خلقه علم أن في عمل قلبه موضعاً يحتاج إلى إصلاح.

لا تسأل اليوم كيف يراك البعيدون. اسأل أهل بيتك: متى يكون الحديث معك آمناً؟ ومتى يخشون غضبك؟ استمع ولا تدافع عن صورتك.

الفصل ٢٨ — أثقل ما يوضع في الميزان

قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء». [٣٩]. يجمع الحديث بين ثقل الحسن وبغض ضده، حتى لا يتحول الكلام عن الفضيلة إلى أمنية بلا ترك للفحش.

قد تمر أعمال حسن الخلق هادئة: تكظم كلمة، أو تحفظ سراً، أو تحتمل خطأ، أو تعيد مالأ لم يعلم به صاحبه. لا يصاحبها مشهد كبير، لكنها محفوظة في ميزان لا يضيع فيه مثقال ذرة.

والفحش ليس صراحة، والبذاءة ليست قوة. يستطيع الإنسان أن يقول الحق بلفظ واضح دون أن يهتك كرامة غيره. وإذا اعتاد المجلس الضحك من الإهانة، بقي قبحها وإن صفق السامعون.

احذف من قاموسك كلمة واحدة تستعملها عند الغضب. لا تنتظر
تغير المزاج؛ اتخذ قراراً لغوياً واضحاً، واعتذر كلها زلت حتى
تنقطع العادة.

الفصل ٢٩ — القرب من النبي ﷺ

قال النبي ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة
أحسنكم أخلاقاً». [٤٠]. محبة النبي ﷺ تدفع إلى اتباع هديه، ومن
أعظم هديه حسن المعاملة.

ليس القرب دعوى تُنال بكثرة الحديث عن المحبة مع إصرار على
ظلم الناس. كل مرة يرد فيها الإنسان نفسه إلى الرفق والصدق،
يصدق جزءاً من اتباعه. وكلما وقع في أذى، احتاج أن يتوب
ويصلح، لا أن يستر الزلة بشعار.

والحديث لا يجعل رضا الناس غاية. قد يحسن المؤمن خلقه
ويغضب منه من يريد باطلاً. المطلوب أن يبقى صادقاً عادلاً رقيقاً
وهو يرفض، وأن يراجع نفسه لئلا يدخل الهوى تحت اسم النصر
للحق.

اسأل في موقف خصومة: أي جواب أقرب إلى هدي النبي ﷺ
في الصدق والعدل والرفق؟ ثم اختره ولو كان أقل إرضاءً لنفسك.

الفصل ٣٠ — درجة الصائم القائم

قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».^[٤١] يرفع الحديث قدر المعاملة اليومية، لكنه لا يدعو إلى ترك الصيام والقيام؛ بل يبين سعة أبواب الفضل.

ويلفت ابن رجب إلى حاجة أصحاب الاشتغال بالعبادة إلى هذا الباب، وإلى فضل حسن الخلق الذي لا تستغني عنه التقوى.^[٤٢] فمن نافلة الخير أن يزيد الإنسان صلاة أو صياماً، وليس له أن يجعل ذلك عذراً لخشونة مع أهله أو تضييع أمانته. والتصحيح لا يكون بترك العبادة، بل بأن تؤتي عبادته ثمرتها في الحقوق التي تلاقيه بعدها. ولعله يحتاج أن يراجع ترتيب يومه: أطول بعض أعماله الاختيارية حتى يفوته حق واجب لإنسان؟ وهل يقيس قربه من الله بما يسهل عليه وحده، ويترك المجاهدة فيما يثقل على طبعه؟

الصائم القائم يجاهد شهوة البدن وحب الراحة، وحسن الخلق يجاهد غضب النفس وحب الانتصار والشح والكبر. وقد تكون مجاهدة المرء في بيته كل يوم أشق عليه من عمل يؤديه وحده ثم ينصرف.

لا ينبغي أن تتحول المقارنة إلى مفاضلة نضع بها الأعذار. من فتح الله له باب عبادة فليحفظه، وليطلب أثره في خلقه. ومن شق

عليه طول النوافل فلا يزهد في الكلمة الطيبة والصبر على الناس؛
فإن فضل الله واسع.

اجعل خدمة إنسان اليوم قرينة مقصودة: أنصت، أو اقض حاجة،
أو تحمل ما اعتدت دفعه إلى غيرك. استحضر أن حسن الخلق
عبادة لا مجاملة.

الفصل ٣١ — تقوى الله وحسن الخلق

سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال:
«تقوى الله وحسن الخلق»^[٤٣]. جمع بين تقوى تضبط الصلة بالله،
وحسن خلق يظهر في معاملة الناس.

التقوى بلا أثر خلقي تحتاج إلى مراجعة، وحسن المعاملة الذي لا
يرجع إلى الإيمان قد ينفع الناس في الدنيا لكنه لا يغني عن حق
الله. المؤمن يسأل أن يجمع الله له الصالحين: قلباً يراقبه، ويداً
ولساناً يأمنهما عباده.

ويبدأ الجمع في الموقف الواحد. حين تكف عن غيبة لا يسمعها
صاحبها، فهذا تقوى وحفظ لحقه. وحين تؤدي الأمانة مع قدرتك
على إخفاء النقص، اجتمعت مراقبة الله وحسن المعاملة.

اختر عملاً لا يراك فيه إلا الله ويصل أثره إلى إنسان: رد أمانة، أو
دفاع عن غائب، أو إصلاح خطأ لم يكتشفه صاحبه.

الفصل ٣٢ — بيت في أعلى الجنة

قال النبي ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». [٤٤].

يربط الحديث حسن الخلق بعادات الكلام التي يستهين بها الناس: جدال يريد صاحبه الغلبة، وكذب يغلف بالمزاح. قد يكون الإنسان محققاً في أصل المسألة ثم يخسر قلبه وأدبه بإطالة المراء.

ترك المراء لا يعني ترك البيان العلمي أو الدفاع عن مظلوم. معناه ترك الخصومة التي ظهر فيها الحق ولم يبق إلا استعراض القدرة على الرد. والمتقي يعرف متى أصبحت كلماته وقوداً لنفسه.

أنه حواراً واحداً طال بلا ثمرة. قل: ظهر موضع الخلاف، ولا أريد أن يتحول إلى خصومة. ثم اشغل نفسك بما ينفع.

الفصل ٣٣ — الفحش واللعن والخصومة

قال النبي ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». [٤٥]. النفي هنا عن كمال الإيمان الواجب، وفيه تحذير من أن تصبح هذه الصفات عادة تعرف بصاحبها.

الطعن يبحث عن نقص الشخص بدل مناقشة فعله، واللعن يجري على اللسان حتى يهون، والفحش يتجاوز الحد في اللفظ والمعنى.

وقد تتخفى هذه الآفات في صورة مزاح أو نقد أو دفاع عن الدين.

علاجها ليس في الصمت المؤقت وحده، بل في إصلاح ما يغذيها: احتقار الناس، والاستعلاء، والغضب المتراكم، والصحبة التي تجعل البذاءة خفة ظل. يتوب المرء من اللفظ، ثم يقطع طريق عودته.

راجع آخر خصومة كتبها أو قلتها. ضع خطأ تحت كل وصف للشخص لا للفعل، ثم أعد صياغة ما يلزم قوله واترك الباقي.

الفصل ٣٤ — الرفق يزين الأمور

قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».^[٤٦] الرفق لا يغير الحق، لكنه يحسن حمله إلى الناس.

في التعليم يعني التدرج وفهم حال المتعلم. وفي الإدارة يعني وضوح المطلوب دون إذلال. وفي الأسرة يعني أن يبقى الأمان حاضراً أثناء التصحيح. وقد يظن الإنسان أن الشدة أسرع، لكنها تترك مقاومة وخوفاً وتعلم المخطئ إخفاء خطئه.

ليس الرفق بطئاً دائماً؛ قد يقتضي إنقاذ مظلوم تدخلاً حازماً سريعاً. الفارق أن الحزم يقتصر على القدر اللازم، أما العنف فيضيف غضب النفس إلى مقتضى الحق.

في التوجيه القادم، اخفض صوتك وحدد فعلاً واحداً، ثم اترك للشخص فرصة أن يجيب. راقب هل تحسن الفهم حين زال الخوف.

الفصل ٣٥ — الحياء من الإيمان

مر النبي ﷺ على رجل يعظ أخاه في الحياء، فقال: «دعه، فإن الحياء من الإيمان».^[٤٧] الحياء يمنع من القبيح، ولذلك كان خيراً. أما العجز عن قول الحق أو سؤال العلم فليس هو الحياء المحمود. كانت نساء الأنصار يسألن عما يحتجن إليه في الدين، ومدحتهن عائشة رضي الله عنها بأن الحياء لم يمنعهن من التفقه،^[٤٨].

نحتاج إلى تحرير هذا الفرق في تربية الأبناء. لا نربي الطفل على الخوف من الناس، بل على معرفة الحدود وكرامة الجسد واللسان ومراقبة الله، مع قدرة على الإبلاغ عن الأذى وطلب المساعدة.

اسأل: هل منعي اليوم عن الكلام سببه تعظيم الحق أم الخوف من صورة نفسي؟ إن كان حقاً واجباً، فاطلب العبارة المهذبة وقلها.

الفصل ٣٦ — القوة عند الغضب

قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».^[٤٩] نقل الحديث معنى القوة من غلبة الأجساد إلى قيادة النفس.

ويشرح ابن رجب وصية «لا تغضب» من جهتين: الأخذ بالأسباب التي تربي الحلم قبل هيجان الغضب، وعدم تنفيذ ما يمليه الغضب عند حصوله.^[٥٠] وهما بابان يكمل أحدهما الآخر؛ فلا تكفي حيلة وقتية إذا بقي المرء يغذي الكبر والحدة في سائر يومه، ولا يغنيه حب الحلم عن إجراء يوقف به أذاه عند الخسومة. ومن تطبيق ذلك أن يعرف عبارة يطلب بها مهلة مناسبة، وأن يمتنع في تلك المهلة عن كتابة ما لا يرضاه إذا هدأ. وهذا تدريب مقترح، لا عبادة ذات عدد أو وقت مخصوص.

مالك نفسه لا ينكر غضبه، لكنه يمنعه من قيادة اللسان واليد. وقد ينسحب من المكان، أو يؤجل القرار، أو يطلب من ثقة أن يحضر الحوار. هذه ليست هزيمة؛ إنها استعمال للقوة في موضعها.

ومن تمام الملك أن يصلح ما وقع. بعض الناس يهدأ ثم يتصرف كأن شيئاً لم يكن، ويبقى أهله تحت أثر كلماته. القوي يواجه تبعته ويعتذر ويرد الحق.

تعرف إلى أول علامة جسدية لغضبك: تسارع النفس، أو ارتفاع الصوت، أو شد اليد. اجعلها إشارة توقف قبل الوصول إلى الفعل.

الفصل ٣٧ — وصايا جامعة في المعاملة

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تحمها، وخالق الناس بخلق حسن».^[١٠] تجمع الوصية المراقبة والتوبة والمعاملة.

«حيثما كنت» تزيل ازدواجية الصورة؛ نثقي الله في العلن والخلوة. واتباع السيئة بالحسنة يمنع القنوط بعد الزلة، لكنه لا يسقط حقوق الناس؛ فمن كانت سيئته مظلمة، كانت من الحسنة أن يردّها ويتحلل منها.

ثم تأتي مخالقة الناس بخلق حسن، لا جماعة مختارة منهم. ومع ذلك لكل علاقة حكمها وحدودها، فلا يكون حسن الخلق طاعة لمخلوق في معصية أو سكوتاً عن ظلم.

إذا زلت اليوم، لا تؤجل العودة. استغفر، وحدد الحسنة التي تصلح الأثر، ثم افعّلها قبل أن تبرد عزيمتك.

الفصل ٣٨ — جوامع السنة في ميزان واحد

تكشف الأحاديث الصحيحة والحسنة أن حسن الخلق ليس فضلاً اجتماعياً زائداً، بل عبادة تثقل الميزان، وتدل على كمال الإيمان، وتقرب من النبي ﷺ. وتكشف كذلك أن طريقه يمر بحفظ اللسان وترك المرء والكذب والفحش.

ينبغي أن تُجمع هذه النصوص ولا يُستعمل بعضها لإلغاء بعض. فضل الخلق لا يسقط الفرائض، والرفق لا يلغي الحدود، والعفو لا يبيح حق غير صاحبه. ويظل المؤمن بين رجاء فضل الله وخوف التقصير، لا يزيكي نفسه بحديث حفظه.

ومن أحسن الانتفاع بالسنة أن يجعل كل حديث سؤالاً في حياته. أين مرأى؟ أين فحشي؟ من يأمني في البيت؟ ما العمل الخفي الذي يدل على تقواي؟ هكذا تتحول النصوص من محفوظات إلى موازن.

اختر حديثاً واحداً من هذا الكتاب واحفظه، ثم اجعله رفيق أسبوعك. اكتب في آخر كل يوم موقفاً وافقته وموقفاً خالفته، واستغفر واعزم على الإصلاح.

الكتاب الرابع — كان خلقه القرآن

مدخل الكتاب

كلما اقتربنا من حياة النبي ﷺ رأينا الأخلاق ديناً يُعاش. لم تكن الرحمة كلمة يوصي بها ثم يغيب أثرها عن بيته، ولا كان العدل مبدأ يطبقه على الضعيف ويستثني منه القريب. شهد له من خدمه، ومن عاشره، ومن خاصمه، وحفظت السنة مواقف صغيرة في ظاهرها عظيمة في دلالتها: ابتسامة، وإنصات، وعفو، وتصحيح لا يهين المخطئ.

وسنقف عند المواقف الثابتة كما جاءت، من غير أن نضيف حواراً لم يُنقل أو نزعم معرفة ما سكت عنه الرواية. المقصود أن نرى الهدى، ثم نرد السؤال إلى أنفسنا: ما الذي يتغير في البيت والعمل والخلاف إذا صدق الاقتداء؟

الفصل ٣٩ — شهادة عائشة رضي الله عنها

سأل سعد بن هشام عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: «ألست تقرأ القرآن؟» قال: بلى. قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».^[٥٢] هذا الجواب ميزان لقراءة السيرة؛ فما أمر به القرآن وجدنا كمال امتثاله في هديه، وما نهى عنه كان أبعد الناس عنه.

وفصل النووي معنى كون خلقه ﷺ القرآن، فذكر العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بقصصه وتدبره. [٥٣]. إننا أمام صلة بين الوحي والحياة، لا بين الحفظ واللسان فقط. فمن قرأ الأمر بالعدل ثم جار في خصومة، فقد بقي بين علمه وعمله موضع يحتاج إلى إصلاح. ومن قرأ قصة ثم لم ير فيها إلا خبراً مضى، فاتته باب الاعتبار الذي يرد القارئ إلى نفسه. ويكون سؤالنا بعد التلاوة: ما الأمر الذي أمثله، والنهي الذي أكف عنه، والأدب الذي أجاهد نفسي عليه؟

لم تقل عائشة رضي الله عنها ذلك عن مشاهدة عابرة. كانت زوجاً تعيش تفاصيل البيت، وترى وقت الراحة والتعب والعبادة والمعاملة. وشهادة القريب أبلغ حين يوافقها نقل الصحابة في سائر الدوائر.

قراءة السيرة بهذا المفتاح تمنعنا من تحويلها إلى أخبار منفصلة. حين نقرأ صبره نصل بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وحين نقرأ عفوه نعود إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

كلما قرأت موقفاً من السيرة، اكتب بجواره الخلق الذي يظهر فيه، ثم حدد موضعاً واحداً في حياتك يحتاج إلى هذا الهدي.

الفصل ٤٠ — رحمته ﷺ بالأمة

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. كان يشق عليه ما يشق على أمته، ويريد لها الهداية، ويختار التيسير المشروع.

قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». [٥٤]. ترك الإلزام مع محبته للعمل خشية المشقة. وفي الصلاة كان يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيتجاوز فيها كراهية أن يشق على أمه. [٥٥].

رحمته ﷺ لم تكن تضييعاً للتكليف؛ بل تبليغاً كاملاً مع معرفة بطباع الناس وأحوالهم. ومن اقتدى به لم يجعل الحزم ذريعة لإتعاب من تحت يده، ولم يجعل التيسير باباً لإسقاط ما أوجب الله.

راجع تكليفاً تطلبه ممن تحت مسؤوليتك: هل هو ضروري؟ هل وقته مناسب؟ هل شرحت المطلوب؟ أزل المشقة التي لا يحتاجها الحق.

الفصل ٤١ — أخلاقه في البيت

قال النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».^[٥٦]
جعل خيرية الرجل ظاهرة في موضع العشرة الطويلة، حيث تقل
المجاملة وتكثر الحقوق.

حفظت عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ سابقها في السفر،^[٥٧]
وروت في صحيح مسلم، ٣٠٠، أنه كان يشرب من الموضع الذي
شربت منه وهي حائض. وهذه التفاصيل تعلم أن المودة ليست
معنى صامتاً؛ تظهر في قرب لطيف، ومراعاة، وإشعار للأهل
بمكانتهم.

وكان ﷺ أباً رحيماً. لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، وقال:
«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا».^[٥٨]
جمع صدق الحزن وحفظ اللسان والرضا عن الله.

اجعل لأهلك نصيباً مقصوداً من حسن خلقك اليوم، لا ما بقي
بعد الناس والعمل. كلمة تقدير صادقة أو إنصات كامل قد
يكونان بداية إصلاح.

الفصل ٤٢ — خدمته لأهله وتواضعه في معيشته

سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟
قالت: «كان يكون في مهنة أهله — تعني خدمة أهله — فإذا

حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».^[٥٩] كان يخدم في البيت مع عظم مسؤولياته، ولم يجعل منزلته سبباً لترك ما يعين به أهله.

تضع هذه الشهادة الخدمة في موضعها الخلقي. ليست انتقاصاً من قدر الرجل، ولا منّة يذكر بها أهل بيته، بل مشاركة ورحمة. ومن كان كثير الحديث عن الاقتداء ثم يستنكف من حمل حاجة أو إصلاح أمر يسير، فقد فاتته معنى قريب.

وفي معيشته ﷺ تواضع وقناعة. مرت به الشهور ولا يوقد في أبياته نار، وكان طعامهم التمر والماء،^[٦٠] لم يكن ذلك تحريماً للطيبات، وإنما وصفاً لحياة لم يملكها الترف.

اخدم في بيتك عملاً لا تنتظر عليه شكراً، واحذر أن تحوله بعد ذلك إلى حجة في أول خلاف.

الفصل ٤٣ — مع الأطفال واليتامى والضعفاء

قبل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم».^[٦١] صح تصوراً يربط الجفاء بالقوة، وجعل الرحمة سبباً لرحمة الله.

وكان يحمل أمانة بنت زينب في الصلاة؛ إذا قام حملها وإذا سجد وضعها،^[٦٢] وفي هذا المشهد تتجاوز العبادة والرحمة من غير تكلف. الطفل ليس عائقاً خارج الحياة، بل له مكان في الجماعة والبيت.

ودعا إلى كفالة اليتيم، وثبت عنه قوله: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى.^[٦٣] والمقصود كفالة تحفظ حقه وكرامته، لا صورة إحسان عابرة.

حين يخطئ طفل، اخفض قامتك إلى مستواه وسمِّ الفعل بدل وصفه هو. اجمع التعليم والأمان، ولا تجعل الخوف وسيلتك الأولى.

الفصل ٤٤ — مع الخادم والأجير

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟^[٦٤] عشر سنوات تكشف خلقاً ثابتاً، لا موقفاً معداً للرواية.

لا يعني الخبر أن النبي ﷺ ترك التعليم؛ فقد علم أنساً ودعا له ووجهه. لكنه لم يجعل الخطأ باب إذلال. وبين التصحيح والإهانة مسافة يعرفها من راقب قصده ولفظه.

الخادم والعامل أضعف في علاقة السلطة، ولذلك يظهر الخلق في معاملتهما. من يضبط نفسه أمام القوي ثم يطلقها على العامل لم يملك غضبه، وإنما نقل خوفه من موضع إلى موضع.

راجع آخر تصحيح وجهته إلى عامل أو موظف: هل حددت الخطأ المطلوب؟ أم وسّعت الكلام إلى شخصه وكرامته؟ أصلح العبارة والأثر.

الفصل ٤٥ — مع الأعرابي والجاهل وحديث العهد بالإسلام

بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه، فقال النبي ﷺ: «دعوه»، ثم أمر بذنوب من ماء فأهريق عليه، وقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».^[٦٥] أوقف اندفاع الناس إليه، وأمر بتطهير الموضع، ووجههم إلى التيسير.

هذا الموقف مدرسة في ترتيب الأولويات. قد يرى الإنسان منكراً فيشتد، لكنه يزيد الضرر بجهله. العلم لا يعرف الحكم وحده؛ يعرف كيف يزيل الخطأ بأقل مفسدة.

ومن رحمة المعلم أن يفرق بين الجاهل والمعاند، وبين الزلة والعادة. ليس كل مخطئ في الدرجة نفسها. ومع ذلك لم يترك النبي ﷺ حرمة المسجد، بل صانها بطريقة أرفق وأحكم.

قبل أن تصحح، اسأل: هل يعرف المخطئ الحكم؟ وما أقل طريقة
تزيل الخطأ وتحفظ كرامته؟

الفصل ٤٦ — حلمه عند الأذى الشخصي

جذب أعرابي رداء النبي ﷺ جذبة شديدة حتى أثرت حاشية
الرداء في عاتقه، ثم طلب أن يعطى من مال الله. فالتفت إليه النبي
ﷺ فضحك، ثم أمر له بعتاء. [٦٦].

لم تكن الجذبة كلمة محتملة، بل أذى ظاهر. ومع ذلك قابلها النبي
ﷺ بالضحك والأمر بالعتاء. نتعلم من فعله أن سوء طريقة السائل
لا يلزم أن يقابل بانتقام شخصي، وأن للرفق موضعاً حين تستطيع
النفس أن تشتد.

الحلم لا يعني أن يُترك كل معتد، ولا أن يطالب المظلوم بالصمت.
لكنه يعلم صاحب السلطة ألا يعاقب لنفسه باسم النظام، وألا
يخلط بين حماية الحق وإشباع الغضب.

إذا أساء شخص طريقة طلب حقه، افصل بين الحق والأسلوب.
أدِّ الحق إن ثبت، ثم صحّ الأسلوب بالقدر المناسب.

الفصل ٤٧ — عفوهِ عند المقدرة

سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ فذكر ما لقيه يوم العقبة حين عرض نفسه على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، وأن جبريل أخبره أن الله سميع قول قومه له، وبعث إليه ملك الجبال. وعرض ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». [٦٧].

العفو هنا ليس إنكاراً للأذى، فقد وصفه بأنه يوم شديد، لكنه نظر إلى باب الهداية الذي قد يفتحه الله بعد زمان. لم يحصر المستقبل في لحظة الرفض.

وفي فتح مكة ثبت إعلانه الأمان لمن دخل دار أبي سفيان، ومن ألقى السلاح، ومن أغلق عليه بابه. [٦٨]. وفي هذا الأمان موضع للاعتبار بحفظ النفوس عند القدرة، والتزام ما أعلن من عهد. إذا قدرت على الرد، اسأل: ما القدر الذي يحفظ الحق؟ وما الذي يضيفه الغضب فقط؟ اترك الثاني لله.

الفصل ٤٨ — عدله في حقوق الناس

سرت امرأة من بني مخزوم، فشق على قريش أمرها، وأرادوا الشفاعة فيها. غضب النبي ﷺ وقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم

كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، ثم قال: «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». [٦٩].

العدل يشتد امتحانه عند القريب والشريف وصاحب المنفعة. لم يقبل ﷺ أن تبدل الأحكام بالمكانة الاجتماعية، وذكر أحب الناس إليه ليقطع طريق المحاباة.

وليس في الحديث قسوة على الضعيف؛ بل حماية له من مجتمع يعاقبه ويعني القوي. العدل رحمة عامة، وإن كان تطبيقه مؤلماً في بعض المواطن.

راجع قاعدة تطبيقها في بيتك أو عملك. هل تتغير باختلاف الشخص؟ إن كان لها استثناء مشروع فيّنه، وإلا فسوّ بين الناس.

الفصل ٤٩ — صدقه وأمانته

سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: هل كنتم تتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا. فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. [٧٠]. جاءت الشهادة من خصم قبل إسلامه، فكانت أبلغ في بيان ما عُرف به ﷺ.

ولما نزل الوحي أول مرة قالت له خديجة رضي الله عنها: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل،

وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»^[٧١].
استدلت بأخلاق ثابتة عاشتها وعرفها الناس.

الصدق رصيد يبنيه الإنسان قبل المحنة. حين يُعرف به في الرضا والغضب، يكون لقوله وزن. أما من يختار الحقيقة حسب مصلحته، فإنه يهدم ثقته وإن صدق أحياناً.
لا تنتظر امتحاناً كبيراً للأمانة. صبح اليوم معلومة صغيرة تمنحك فضلاً ليس لك.

الفصل ٥٠ — الوفاء بالعهد وحفظ الجميل

في صلح الحديبية قبل النبي ﷺ شروطاً شقت على بعض الصحابة، ثم وفي بها.^[٧٢] رأى بعلمه ووحى ربه ما وراء اللحظة، ولم ينقض العهد لأن النفوس تأملت من ظاهره.

وكان يحفظ لخديجة رضي الله عنها ودها بعد موتها، فيصل صديقاتها ويذكر فضلها. قالت عائشة رضي الله عنها إنها ما غارت من امرأة ما غارت من خديجة لكثرة ذكر النبي ﷺ إياها.^[٧٣]

حفظ الجميل خلق يقاوم سرعة النسيان. لا يجعل الإنسان وفاة صاحبه أو انتهاء المصلحة سبباً لمحو أثره، ولا ينسب لنفسه ما قام به معه آخرون.

اكتب اسم شخص كان له فضل قديم عليك، ثم صلّه أو ادع له أو اشكره بما يناسب، من غير مبالغة ولا تكلف.

الفصل ٥١ — تواضعه ﷺ

ثبت عن أنس رضي الله عنه أن الأمة من إماء أهل المدينة كانت تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتقل به حيث شاءت،^[٧٤] لم يكن تواضعه تصنعاً؛ فقد جمعه الله بأعلى مقام للرسالة، ثم بقي قريباً من أصحاب الحاجات.

وفي صحيح مسلم أن امرأة كان في عقلها شيء قالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.^[٧٥] وبين النووي أن الوقوف كان في طريق يمر به الناس ويرونها معه، مع صيانة حديث حاجتها عن أسماعهم؛ فليس ذلك خلوة محرمة.^[٧٦] لم يستعمل الهيبة لإبعاد من احتاج إليه.

التواضع النبوي لا ينقص من توقير الرسالة. كان الصحابة يحبونه ويعظمونه، وهو يعلمهم ألا يرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله. والافتداء به يحرر القائد من طلب مظاهر التعظيم.

أزل حاجزاً شكلياً لا حاجة إليه بينك وبين من تحت مسؤوليتك،
وافتح باباً للسؤال لا يخاف صاحبه من الإهانة.

الفصل ٥٢ — حياؤه وعفته ونقاء لسانه

كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه. ^[٧٧]. حياؤه لم يمنعه من البلاغ، لكنه صان لسانه وطريقته.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً». ^[٧٨].
نفي الفحش يشمل اللفظ والطبع المتكلف له.

النقاء لا يعني الغموض في الأحكام التي يحتاج الناس إلى بيانها.
كان ﷺ يعلم الرجال والنساء مسائل الطهارة والعشرة بعبارة صادقة تحفظ الحياء وتؤدي العلم.

فتش في مزاحك ورسائلك عن لفظ لا تحب أن يعرض في صحيفة عملك. اقطعه قبل أن يصير من طبع لسانك.

الفصل ٥٣ — جوده وحسن عشرته

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل؛ ^[٧٩].

كان جوده يزيد مع القرآن ومدارسته، كأن الوحي يفتح أبواب البذل.

وقال جابر رضي الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا. ^[٨٠] يحمل الخبر على سماحته فيما يملك ويقدر، ولا يعني وعداً بما لا يملك.

الجود أوسع من المال. بذل الوقت، وحسن الاستقبال، واحتمال السائل، وتعليم الجاهل كلها أبواب. وحسن العشرة أن يشعر من يجلس إليك أن له نصيباً من انتباهك، لا أن يبقى ينتظر فراغك من هاتف أو هم آخر.

ابذل شيئاً تحبه وتستطيع: مالاً، أو وقتاً، أو معرفة. أخف عملك ما استطعت، ولا تتبع البذل بتذكير.

الفصل ٥٤ — شجاعته وثباته دون قسوة

لما اضطرب الناس في حنين ثبت النبي ﷺ وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». ^[٨١] لم تكن الشجاعة اندفاعاً أعمى، بل ثباتاً في موضع فر فيه بعض الناس ثم عادوا.

وفي المدينة فزع الناس ليلاً من صوت، فسبقهم النبي ﷺ إلى موضعه، ثم رجع يطمئنهم. ^[٨٢] بادر إلى الخطر قبل غيره، ولم يرسلهم إليه وهو آمن.

لكن هذه الشجاعة لم تصنع قلباً قاسياً. كان أرحم الناس وأشجعهم. القوة التي يمدحها الشرع تحمي، ولا تثلث بإخافة الضعفاء..

تقدم في مسؤولية كنت تدفعها إلى غيرك، لكن لا تجعل تحملها ذريعة لاحتقار من خاف أو تردد.

الفصل ٥٥ — مزاحه الصادق وشاشته وإنصاته

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: ما جئني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رأيي إلا تبسم في وجهي؛^[٨٣]. كانت البشاشة خلقاً يفتح القلب من غير تكلف.

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، كما جاء في حديث صحيح عند الترمذي. المزاح يخفف الحياة حين يحفظ الصدق والكرامة، لكنه يتحول إلى أذى إذا بُني على كذب أو سخرية أو كشف سر.

وفي خبر المرأة التي سألته حاجة أنه ﷺ بقي معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.^[٨٤]. نتعلم من هذا الموقف العناية بصاحب الحاجة. والإنصات ليس سكوت الجسد مع انشغال القلب، بل حضور يفهم المعنى ويجب عنه.

في حديثك المقبل، ضع هاتفك جانباً ولا تقاطع. وإن مزحت، فاجعل كرامة صاحبك حداً لا تتجاوزه.

الفصل ٥٦ — أدبه في التعليم وتصحيح الخطأ

تكلم معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه في الصلاة وهو حديث عهد بالإسلام، فلما انتهت الصلاة علمه النبي ﷺ. قال معاوية: «فبأي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه؛ فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني».^[٨٥]

حفظ المتعلم وصف الطريقة قبل أن يذكر تفصيل الحكم. لم تمنع الرحمة بيان الخطأ، ولم يحتج البيان إلى شتم. وهذا أصل لكل مرب ومعلم ومدير.

التصحيح النافع يحدد الفعل، ويبين الصواب، ويراعي علم صاحبه وحاله. أما جمع أخطاء السنوات في لحظة واحدة فيغلق القلب، ولو كان كل خطأ صحيحاً في نفسه.

صح خطأ واحداً بعبارة قصيرة، ثم اطلب من المتعلم أن يعيد الفهم بكلامه. اجعل غايتك التعلم لا التفوق عليه.

الفصل ٥٧ — أدبه في النصيحة والعتاب

كان النبي ﷺ يعرض ببعض الأخطاء العامة فيقول: «ما بال أقوام»، كما في إنكاره علي من تنزهه عن رخصته.^[٨٦] يعالج الخطأ الذي شاع من غير حاجة إلى تسمية صاحبه، فيجمع البيان والستر.

وليس الستر قاعدة تمنع التعيين مطلقاً؛ فقد يحتاج الحق إلى تحديد المسؤولية. لكن الأصل ألا يُنقل الخطأ من دائرة العلاج إلى دائرة الفضيحة لمجرد غضب الناصح.

وقال ابن حزم في أدب الصحبة: «لا تنصح على شرط القبول».^(٨٧) تنزع هذه الكلمة عن النصيحة طلب السيطرة؛ نحب للمنصوح الخير، ونبذل البيان بأدب، ولا نجعل قبول رأينا ثمناً لكرامته عندنا. وليس معناها إسقاط واجب التعليم أو الحماية، ولا ترك المنكر في كل حال بعد كلمة واحدة؛ فللمواقف أحكامها. لكنها تكشف حظ النفس حين ينقلب الناصح مؤذياً لأنه لم يجد استجابة سريعة. ومن التطبيق النافع أن يراجع المرء: هل غضبي لأن الحق ضاع، أم لأن كلامي لم يعظم في عين سامعه؟

وكان عتابه بقدر، لا يحول الزلة إلى تعريف دائم للإنسان. ومن أدب العتاب ألا تصبح الزلة وصفاً دائماً لصاحبها بعد رجوعه وإصلاحه.

قبل النصيحة، حدد دائرة من يحتاج إلى سماعها. لا توسع الجمهور، ولا تجعل العتاب مادة ترويحاً بعد زوال الحاجة.

الفصل ٥٨ — مع المخالف والأسير

أُسْر ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ، فَرِطَ فِي سَارِيَةِ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ. كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِيهِ وَيَسْأَلُهُ عَمَّا عِنْدَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ. فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ عَادَ فَأَسْلَمَ، ^[٨٨].

أَطْلَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ ثَمَامَةُ فَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ صَارَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا كَانَ أَبْغَضَهَا. ^[٨٩]. وَمِنْ هَذَا التَّحْوِيلِ نَتَأَمَّلُ أَثَرَ الْإِحْسَانِ فِي فَتْحِ الْقَلْبِ؛ فَتَقِفُ عِنْدَ مَا حَكَاهُ الْخَبَرُ، وَلَا نَضِيفُ إِلَيْهِ مَشَاهِدَ لَمْ يَذْكُرْهَا.

وَكَانَ ﷺ يَقْبَلُ الْحَقَّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ، وَيَقِيمُ الْعُهُودَ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَمْنَعُ الْغَدْرَ. لَكِنْ حَسَنَ الْخَلْقِ مَعَ الْمَخَالِفِ لَا يَعْنِي تَصْحِيحَ بَاطِلِهِ أَوْ تَرْكَ حِمَايَةِ الْجَمَاعَةِ مِنْ عَدَوَانِهِ.

إِذَا حَاوَرْتَ مَخَالَفًا، لَا تَحْمِلْهُ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ. بَيْنَ مَا تَرَاهُ حَقًّا، وَاحْفَظْ لَهُ حَقَّهُ فِي الْعَدْلِ وَالْكَرَامَةِ.

الفصل ٥٩ — أخلاق القيادة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩]. كَانَ مُؤَيِّدًا بِالْوَحْيِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَ بِالشُّورَى فِيمَا مَجَاهِلُهَا الْاجْتِهَادَ. الْقَائِدُ الَّذِي يَسْتَمْعُ لَا يَفْقَدُ مَكَانَهُ، بَلْ يَجْمَعُ عُقُولَ مَنْ مَعَهُ وَيَعْلَمُهُمْ تَحْمِلَ الْمَسْئُولِيَّةَ.

وولى ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنهما قيادة جيش فيه كبار الصحابة، وثبت دفاعه عن كفاءته. [٩٠]. لم يجعل صغر السن مانعاً إذا حضر الاستحقاق.

ومن خلق القيادة أن يتحمل القائد تبعه قراره، وألا ينسب النجاح لنفسه والخطأ لفريقه. ويختار للأعمال أهل الأمانة والكفاءة، لا من يكثر مدحه.

في قرار قادم، استشر من سيتحمل أثره، ثم بين القرار ومسؤوليته بوضوح. لا تجعل الشورى صورة بلا أثر.

الفصل ٦٠ — أخلاق الحرب والسلم والعهود

نهى النبي ﷺ عن قتل النساء والصبيان، حين وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازيه. [٩١]. حتى في الحرب بقيت الحدود الشرعية حاكمة، ولم يبح الغضب كل شيء.

وكان الوفاء بالعهد أصلاً؛ ظهرت مشقته في صلح الحديبية، ومع ذلك لم يفتح ﷺ باب الغدر. والسلم عند القدرة ليس جبناً إذا حقق مصلحة مشروعة، كما أن القوة ليست عدواناً إذا منعت ظلماً بالقدر المأذون.

يحتاج هذا الباب إلى علم؛ فلا تُنقل أحكام الحرب إلى خصومات الحياة اليومية، ولا تُستعمل ألفاظها في خلاف رأي أو تجارة. ومن حسن الخلق أن توضع النصوص في مواضعها. احفظ عهداً صغيراً اليوم: موعداً، أو سراً، أو شرطاً تعاقدت عليه. من يستخف بالعهد الصغير يضعف عند الكبير.

الفصل ٦١ — ضبط قراءة السيرة والشمائل

محبة النبي ﷺ تحملنا على الصدق عنه، لا على قبول كل قصة توافق العاطفة. يكفيننا من فضله ما ثبت، وهو أبلغ وأهدى. لذلك يرد الخبر إلى مصادره، وتُعرف درجته، ولا تملأ المشاهد بما لم ينقله أصحابها.

ومن الخطأ أن نضع على لسانه حواراً نتخيله، أو نصف مشاعره الباطنة بلا نص، أو نجعل الحكاية المرسلة أساساً لفضيلة. الأدب معه ﷺ أن نقول ما علمنا ونسكت عما لم نعلم.

كما ينبغي قراءة الموقف كاملاً. قد تُنتزع الرحمة من سياق العدل، أو الحزم من سياق الضرورة، فيختل الاقتداء. جمع الروايات الصحيحة وأقوال أهل العلم يحفظ المعنى من الانتقاء.

لا تنشر قصة من السيرة لمجرد تأثيرها. اطلب مصدرها، فإن ثبتت انتفعت بها، وإن لم تثبت تركتها وفي الصحيح غنية.

الكتاب الخامس — مكارم الأخلاق في حياة الأنبياء

مدخل الكتاب

قصص الأنبياء في القرآن هداية، لا مادة لسد الفضول. يخبرنا الله منها بما يصلح القلب، ويسكت عن تفاصيل لا نحتاج إليها. لذلك نقف عند النص، ونستخرج المعنى بقدر ما يدل عليه، ولا نملاً المشهد بأسماء وحوارات لم تثبت.

والأنبياء عليهم السلام صفوة الخلق، قدوة في التوحيد والصبر والصدق والإنابة. وما ذكره القرآن من اجتهد أو عتاب نقرؤه بأدب النبوة، ونرى فيه سرعة الرجوع إلى الله، ولا نجعله باب تنقص أو حكاية مجردة.

الفصل ٦٢ — آدم عليه السلام والاعتراف بالذنب

لما أكل آدم وزوجه من الشجرة لم يبنيا عذراً يحمل غيرهما الذنب، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. جمع الدعاء الاعتراف والافتقار والرجاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]. أول الطريق بعد الزلّة أن تسقط خصومة النفس مع الحقيقة. الاعتراف لا يغير الماضي، لكنه يفتح باب التوبة والإصلاح.

في حياتنا قد نضيف إلى الخطأ خطأً أشد حين نقاوم الاعتذار: تتعلق بطريقة النصيحة، أو نستحضر أخطاء الطرف الآخر، أو نزعم أن قصدنا الحسن يكفي. هدي آدم عليه السلام أن يبدأ الإنسان من نفسه.

في خطأ تعرفه، قل بوضوح: أنا فعلت كذا، وكان خطأ. لا تضع بعد الاعتراف كلمة «لكن» حتى تؤدي حق التوبة والإصلاح.

الفصل ٦٣ — نوح عليه السلام وطول الصبر

قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾﴾ [نوح: ٥-٦]. ثم ذكر تنويعه في الدعوة سرا وجهارا. قرون من الدعوة لا تختصرها نتيجة عاجلة، وصبره لم يكن صمتاً؛ كان عملاً متجدداً.

وقال لقومه: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]. لم يجعل رفضهم سبباً لتبديل الرسالة، ولم يجعل ثباته استغناء عن ربه.

يعلمنا خبره أن النصيح لا يملك القلوب. علينا صدق البيان وحسن الطريق والصبر، أما الهداية فبيد الله. وهذا يحمي المربي من اليأس ومن القسوة التي تنشأ حين يريد نتيجة تحت أمره.

غير وسيلة نصيح تكرر بلا ثمرة، مع بقاء الحق. اختر وقتاً أهدأ، وعبارة أقصر، ثم اترك للقلب مساحته ولا تطلب ثمرة فورية.

الفصل ٦٤ — إبراهيم عليه السلام الحليم المضيف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]. جمع الحلم ورقة القلب وكثرة الرجوع إلى الله. وظهر كرمه حين جاءته الملائكة في صورة ضيوف: ﴿فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فقربه إليهم قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿[الذاريات: ٢٦-٢٧]. بادر من غير أن يحمل ضيفه سؤال الحاجة.

لكن حلمه لم يكن مداينة في التوحيد. أعلن البراءة من الشرك، وقال لقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿[الزخرف: ٢٦-٢٧]. اجتمع لين الطبيعة وقوة العقيدة.

هذه الموازنة مهمة. قد يظن الإنسان أن الحليم لا يرفض، أو أن الثابت على الحق يلزمه الجفاء. إبراهيم عليه السلام يعلمنا أن القلب يمكن أن يرق، واللسان يمكن أن يبين، واليد يمكن أن تكرم، من غير تنازل عن أصل الدين.

أكرم ضيفاً أو محتاجاً بالفعل قبل كثرة الكلام، وإذا احتجت إلى رفض باطل فاجعل عبارتك واضحة بلا سخرية.

الفصل ٦٥ — إسماعيل عليه السلام صدق الوعد والصبر

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥]. الصدق هنا وصف ثابت، وصلاحه وصل إلى بيته بالأمر بالصلاة والزكاة.

والذي هو إسماعيل على القول الذي رجه ابن كثير واختاره السعدي، مع وجود خلاف في تعيينه عند المفسرين. [٩٢]. ولما أخبره إبراهيم عليه السلام بما رأى في المنام قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. لم ينسب الصبر إلى قوته وحدها، بل علّقه بمشيئة الله.

صدق الوعد يحتاج ذاكرة ومسؤولية. ليس خلقاً في القلب فقط؛ هو حفظ للوقت، وإبلاغ عند العجز، وتقديم حق من انتظر عليك. والصبر لا يغني عن قول «إن شاء الله» افتقاراً، لا ذريعة لتترك الالتزام.

نفذ وعداً قديماً أو اطلب من صاحبه أن يحلّك منه. لا تضيف وعداً جديداً قبل تنظيف ذمتك.

الفصل ٦٦ — يعقوب عليه السلام والصبر الجميل

لما جاءه أبنؤه بقميص يوسف عليه السلام قال: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. ثم تكرر الابتلاء
فقال: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:
٨٣]. الصبر الجميل استعانة ورجاء، لا جمود شعور.

حزن يعقوب عليه السلام وابتضت عيناه من الحزن، ثم قال: ﴿إِنَّمَا
أَشْكُو بَنِيَّ وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. يبين القرآن أن الحزن
لا يناقض الصبر ما دام اللسان محفوظاً والقلب متعلقاً بالله.

وقد بقي يرجو ويأمر أبناءه بالبحث: ﴿وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾
[يوسف: ٨٧]. فالصبر حركة هادئة نحو ما يمكن، لا استسلام
للعجز.

سَمَّ حزنك في دعائك إلى الله، ثم اكتب السبب الذي ما زال في
قدرتك. افعله بلا إنكار لأملك ولا اعتراض على ربك.

الفصل ٦٧ — يوسف عليه السلام العفيف المحسن

بلغ يوسف عليه السلام ذروة الفتنة حين غُلقت الأبواب ودُعي
إلى المعصية، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. بدأ بالاستعاذة؛
فالعفة ليست ثقة بالنفس، بل هرب إلى الله وأخذ بأسباب
النجاة.

ثم عاش السجن مظلوماً، ومع ذلك شهد له صاحبه: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]. لم يجعل ظلم الناس عذراً ليؤدي من حوله. وحين قدر على إخوته قال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. عفو بعد قدرة، مع اعتراف سابق بحقيقة ما وقع.

ويبين السعدي في تفسير جواب يوسف عليه السلام أنه نفى التثريب عن إخوته، ولم يجعل تذكيرهم بالذنب معاملة مستمرة لهم، ثم دعا لهم بالمغفرة. ^[٩٣]. وفي هذا باب لمن عفا ثم بقي يستعمل الزلة القديمة في كل خلاف؛ فإن اللسان قد يعيد ما أراد صاحبه أن يحوه بالعفو. ولا يلزم من الاقتداء بهذا المعنى الجزم بما لم يذكره القرآن من المشاعر والتفاصيل، ولا تسوية كل خصومة بقصة يوسف. وإنما نتعلم أن الصفح الصادق لا يتخذ الماضي سلاحاً للإذلال، مع حفظ ما يلزم من حقوق وأسباب حماية مشروعة.

وفي قصته اجتماع أخلاق قد نفصل بينها: عفة في الخلوة، وأمانة في المسؤولية، وإحسان في السجن، وعفو عند الملك. الخلق لا يتوقف على المكانة.

إذا ظلمك إنسان، لا تجعل ظلمه ترخيصاً لظلم غيره. أغلق باب المعصية الذي تعرفه، وأحسن إلى من لم يشارك في أذاك.

الفصل ٦٨ — موسى عليه السلام القوة والأمانة والرجوع

قالت إحدى المرأتين لأبيها عن موسى عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. القوة تنجز، والأمانة تصون القوة من الخيانة. ولا يغني أحدهما عن الآخر في المسؤولية.

وكان موسى عليه السلام قوي الغيرة لله، ولما رجع غضبان أسفاً وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه، ثم لما تبين له الأمر قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١]. لا نقرأ الموقف للانتقاص، بل نرى سرعة الإنابة ووحدانية الدعاء له ولأخيه.

وفي صحبته للنخضر عليه السلام قبل شرط التعلم، ولما نسي الشرط في الموقف الأول اعتذر إليه. طالب العلم يحتاج قوة السؤال وتواضع الرجوع.

إذا كشفت لك معلومة جديدة خطأً حكمك، لا تدافع عن انفعالك القديم. صحح القرار واطلب ممن تأذى أن يسامحك.

الفصل ٦٩ — هارون عليه السلام والرفق في الفتنة

لما رجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان، قال هارون عليه السلام: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿ [طه: ٩٤] . بَيْنَ
اجتهاده وخشيته من تفریق بني إسرائيل .

وفي الأعراف قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا
تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] . وفي الآية بيان عذره
وما تعرض له من استضعاف قومه .

الرفق في الفتنة لا يعني قبول الباطل . كان هارون قد قال لقومه:
﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ [طه: ٩٠] .
جمع وضوح الحق والنظر في مآل التصرف .

إذا اختلفت مع شريك في تقدير المصلحة، اشرح الوقائع والمقصد
قبل اتهام النية، واترك له فرصة مراجعة الصورة كاملة .

الفصل ٧٠ — داود وسليمان عليهما السلام العدل والشكر

قال الله لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي
الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] .
الخطر على العدل ليس نقص المعلومة وحده، بل الهوى الذي يزين
الحكم الموافق للنفس .

وذكر الله فهم سليمان عليه السلام في قضية الحرث، ثم قال:
﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] . اختلاف الاجتهاد لم

يمنع إثبات الفضل لكليهما. وهذا أدب عظيم: قد يصيب أحد العالمين في واقعة، ولا يلزم من ذلك إسقاط الآخر.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام النملة تبسم ودعا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]. أعاد القوة والعلم إلى شكر المنعم، ولم ير النعمة ملكاً ذاتياً.

في قرار تملكه، اكتب أولاً أين قد يميل هواك. ثم اطلب معلومة من شخص لا ينتفع بموافقتك.

الفصل ٧١ — أيوب عليه السلام والصبر وحسن الشكوى

قال أيوب عليه السلام: ﴿إِنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. سمي الضر، لكنه لم يعترض، وتوسل إلى الله برحمته. فاستجاب له وكشف ما به، وأثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

الشكوى إلى الله لا تناقض الصبر، بل هي عبادة وافتقار. الذي يفسد الصبر هو التسخط والاعتراض والقول المحرم. وللمريض أن يصف ألمه للطبيب ويطلب العلاج، فهذا من الأخذ بالأسباب.

قصته تعلمنا كذلك ألا ننشئ تفاصيل عن نوع مرضه ومدته وهيئته بلا نص. العبرة ثابتة بما أخبر الله: ضر، وصبر، ودعاء، ورحمة، وفرج.

قل حاجتك لله بصدق وأدب، ثم خذ السبب المتاح. لا تجعل الصبر اسماً لإهمال العلاج أو كتمان الحاجة عمن يستطيع إعانتك.

الفصل ٧٢ — يونس عليه السلام والرجوع بالتسبيح

قال يونس عليه السلام في الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. بدأ بالتوحيد، ونزه الله، واعترف. فجاء الجواب: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

هذا الدعاء يربي النفس على الرجوع من غير مكابرة. قد يضيق الإنسان من نتيجة فعل ثم ينشغل بلوم الظروف. أما طريق الإنابة فيبدأ من الاعتراف بما كان منه.

وفسر السعدي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصفات: ١٤٣] بعبادته وتسبيحه قبل الشدة، وتسبيحه في بطن الحوت. [تيسير الكريم الرحمن، تفسير الصفات: ١٤٣]. ومن هذا المعنى نتأمل أن العبادة في الرخاء زاد عند الشدة؛ فنلازم ذكر الله في العافية، ونرجع إليه عند البلاء بالتوحيد والدعاء والتوبة.

اجعل هذا الدعاء رفيق توبتك من خطأ حاضر، ولا تردده بلسانك وأنت ماض في السبب نفسه بلا عزم على تركه.

الفصل ٧٣ — زكريا ويحيى عليهما السلام

دعا زكريا عليه السلام ربه خفياً، وعرض ضعفه وحاجته بأدب: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مریم: ٤]. جمع صدق الحال وحسن الظن بالله.

وجاء في سياق ذكر زكريا عليه السلام قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ليست المسارعة اضطراباً، بل مبادرة قلب خاشع.

وقال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مریم: ١٣-١٤]. اقترن العلم والحكم بالرحمة والبر والتواضع.

أخف دعاءً بينك وبين الله، وأظهر براً لوالديك بالفعل. الخلفاء يصلح القلب، والبر يختبر أثره.

الفصل ٧٤ — عيسى عليه السلام البر والتواضع والرحمة

تكلم عيسى عليه السلام في المهد فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا﴾

[مریم: ۳۰-۳۲]. بدأ بالعبودية، ثم ذكر الرسالة والبراءة من الجبروت.

المبارك ينفع حيث كان، ولا يحبس خيره في مجلس أو موسم. والصلاة والزكاة تصحبان الحياة، والبر بالأُم من دلائل الصلاح. ونؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً كريماً وعبدًا لله، ونقف عند ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة. توقيره لا يكون بالغلو فيه، كما أن الرد على الغلو لا يجيز جفاء مقامه.

اسأل: ما النفع الذي يصحب وجودي في البيت والعمل؟ اختر نفعاً متكرراً، لا حدثاً ينتظر تصويره.

الفصل ٧٥ — كيف نقرأ أخلاق الأنبياء

أول القواعد أن القرآن هو الأصل، والسنة الصحيحة تبينه. ما سكت عنه الوحي لا نحتاج إلى ملئه بحكايات. قد يكون التفصيل مشوقاً، لكن التشويق لا يحوله إلى علم.

وثانيها أن الأنبياء عليهم السلام قدوة في التوحيد والعبادة والخلق، وأن ما ورد من عتاب يفهم في مقامهم وبيان أهل العلم. لا توصف أفعالهم بألفاظ جارحة، ولا تجعل مادة للمقارنة التي تنقص من قدرهم.

وثالثها أن العبرة لا تُستخرج منفصلة عن السياق. صبر نوح عليه السلام صبر داعية على قوم، وعفو يوسف عليه السلام جاء بعد تمكين، وشكوى أيوب عليه السلام كانت إلى الله. ننتفع بالمعنى، مع حفظ الفروق بين أحوالهم وأحوالنا.

ورابعها ألا ندعي الاقتداء بكلمة. الاقتداء يبدأ من فعل مناسب: اعتراف آدم، وصدق إسماعيل، وعفة يوسف، وإنابة يونس، وبر يحيى وعيسى عليهم السلام.

اختر نبياً من هذه الفصول، وقرأ قصته في مواضعها القرآنية كاملة. اكتب خلقاً واحداً ودليلاً واحداً وعملاً واحداً، واترك ما لم يخبرك الله به.

الكتاب السادس — الصحابة أخلاق صنعت جيلاً

مدخل الكتاب

تربى الصحابة رضي الله عنهم على الوحي وصحبة النبي ﷺ، فظهر أثر ذلك في صدقهم وبذلهم ورجوعهم إلى الحق. لم يكونوا معصومين، لكن الله زكاهم في كتابه، وحفظت السنة مواقف تبين سرعة استجابتهم للتربية.

نقرأ أخبارهم بأدب وعدل. لا نحول المناقب إلى مبالغات، ولا نجعل الفتن باباً للنيل منهم. نثبت ما ثبت، ونرد ما أشكل إلى كلام أهل العلم، ونأخذ من كل موقف ما يصلح النفس.

الفصل ٧٦ — أبو بكر رضي الله عنه

سمّاه الله صاحب النبي ﷺ في الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. كان صدقه ثباتاً حين اضطرب الناس، ورحمة حين قدر، وبذلاً حين دعت الحاجة.

ومن أبلغ مواقف عفوه ما وقع بعد الإفك. كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربه وفقره، فلما خاض مسطح في حديث الإفك حلف أبو بكر ألا ينفق عليه. فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا

أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴿٢٢﴾ [النور: ٢٢]. فقال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، وأعاد النفقة. [٩٤].

لم يكن العفو هنا ضعفاً عن الرد، بل استجابة للوحي مع ألم يمس بيته وعرض ابنته. هذا هو موضع الخلق: أن ينقاد الإنسان للحق حين يأتي مخالفاً لغضبه.

حين تسمع أمر الله في مسألة تمس كرامتك، لا تجعل شدة الألم عذراً لتعطيل الاستجابة. افصل بين حفظ الحق وحظ النفس.

الفصل ٧٧ — عمر رضي الله عنه

عُرِفَ عمر رضي الله عنه بالقوة والعدل، لكن قوته لم تمنعه من الرجوع حين يتبين له النص. سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على وجه غير الذي أقرأه النبي ﷺ، فكاد يعاجله، ثم أخذه إلى رسول الله ﷺ. فلما أقر النبي ﷺ القراءتين، قبل عمر. [٩٥].

الموقف يكشف غيرة للقرآن، وسرعة انفعال، ثم وقوفاً عند بيان النبي ﷺ. الفضيلة ليست ألا يتحرك القلب أبداً، بل ألا يمنع صاحبه من قبول التصحيح.

وفي خلافة مع أبي بكر رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة راجع حتى شرح الله صدره لما رأى حجة أبي بكر. [٩٦]. لم يجعل مكاتته حاجزاً عن إعلان موافقته.

إذا ظهر الدليل على خلاف رأيك، قل بوضوح: ظهر لي الصواب.
لا تبحث عن عبارة تحفظ لك وهم العصمة.

الفصل ٧٨ — عثمان رضي الله عنه

قال النبي ﷺ في عثمان رضي الله عنه: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة». [٩٧]. كان الحياء خلقاً راسخاً فيه، ولم يمنعه من تولي مسؤوليات عظيمة.

وفي صحيح البخاري ذكر مناشدته الصحابة بما عرفوه من بذله في بئر رومة وتجهيزه جيش العسرة، فصدقوه بما قال. [٩٨]. اجتمع له الحياء والجود؛ فالحياء الصحيح لا يحبس الإنسان عن العمل النافع، والجود يحتاج إلى قصد صالح يحفظه من طلب الظهور.

ومن ثمرة قراءة هذا البذل أن ننظر إلى الحاجات العامة التي ينتفع بها الناس، وأن نختار من مالنا ووقتنا ما نستطيع تقديمه لها. لا يلزم أن يظهر اسم المحسن في كل موطن، ولا أن يكون العطاء كله في صور عابرة لا يبقى نفعها.

اجعل حياءك دافعاً لحفظ الحدود، لا عذراً لترك واجب. وابذل لعمل خير لا يعرف أكثر الناس مقدار نصيبك فيه.

الفصل ٧٩ — علي رضي الله عنه

قال النبي ﷺ يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً، يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فأعطاهها علياً رضي الله عنه. [٩٩]. اجتمعت له الشجاعة والمحبة والسبق.

ولما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قاضياً قال له: «إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك»، وأمره أن يسمع من الخصم الآخر كما سمع من الأول. [١٠٠]. العلم والعدل يحتاجان إلى هذا السماع، فلا تكفي بلاغة صاحب الدعوى ولا قربه من قلب من يحكم.

ومع ما أوتي من قوة كان يرجع إلى النص، ويعلم الناس، ويحذر من الغلو فيه. لا يحتاج فضله إلى قصص مزيدة؛ تكفيه قرابته وصحبته وجهاده وعلمه الثابت.

لا تحكم من رواية طرف واحد، ولو كان أقرب إلى قلبك. أعط الطرف الآخر فرصة كاملة، ثم زن بالحق.

الفصل ٨٠ — خديجة رضي الله عنها

حين رجع النبي ﷺ من غار حراء ترجف بوادره قالت خديجة رضي الله عنها: «كلا والله، ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». [١٠١].

ثبته بمعرفة طويلة بأخلاقه، ثم انتقلت من الكلمة إلى الفعل، فذهبت به إلى ورقة بن نوفل يسألانه. الدعم الصادق لا يكتفي بالطمأنة العامة؛ يستحضر دلائل الخير ويأخذ سبباً مناسباً.

وبقي النبي ﷺ يحفظ ودها بعد موتها، يذكر فضلها ويصل صديقاتها. هذا من أثر وفائها وبذلها في قلبه.

إذا اضطرب من تحب، لا تنكر خوفه. ذكره بخير تعرفه فيه، ثم أعنه على الخطوة العملية التالية.

الفصل ٨١ — عائشة رضي الله عنها

ابتليت عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، فأنزل الله براءتها قرآنًا يتلى في سورة النور. حفظت في محنتها صدق التوجه إلى الله، وقالت إنها كانت تعلم أن الله سيبرئها، لكنها لم تظن أن ينزل فيها قرآن؛ [١٠٢].

وكانت من أعلم الصحابة، يرجع إليها الكبار في الحديث والفقه وأحوال النبي ﷺ في بيته. العلم أمانة، وقد أدتها بالتعليم الطويل بعد وفاته.

وحين تسأل أو تراجع خبراً، كان مقصدها حفظ السنة وفهمها، لا المراء. يعلمنا سيرها أن صدق العالم يظهر في الدقة، وأن الظلم لا يسلب المظلوم حقه في البكاء والدعاء وانتظار فرج الله.

إذا نقلت علماً، ميز ما سمعته مما فهمته. وإذا ظلمت، لا تجعل أملك يبيح لك اتهام من لم يثبت عليه شيء.

الفصل ٨٢ — فاطمة رضي الله عنها

فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، ومن فضائلها قوله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني».^[١٠٣] وقد عاشت مشقة في خدمة بيتها، فطلبت من النبي ﷺ ما يعينها.

لما طلبت خادماً، علمها النبي ﷺ وعلياً ذكراً عند النوم خيراً لهما من خادم: التسبيح والتحميد والتكبير.^[١٠٤] لم يمنع ذلك مشروعية طلب العون، لكنه نقل القلب إلى زاد يبقى مع التعب.

وفي مرض النبي ﷺ سارّها فبكت، ثم سارّها فضحكت. أخبرها بقرب أجله ثم بأنها أول أهله لحوقاً به.^[١٠٥] اجتمع حزن البنت وشارة المؤمن.

عند تعب لا تستطيع دفعه كله، خذ السبب المتاح ولا تهمل زاد القلب. لا تجعل المشقة تفسد لسانك مع أقرب الناس.

الفصل ٨٣ — أبو عبيدة رضي الله عنه

قال النبي ﷺ: «إن لكل أمة أميناً، وإن أميناً أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح». [١٠٦]. الأمانة شهادة عظيمة، ظهرت في أهليته للمسؤوليات وحفظ مصالح المسلمين.

حين أرسله النبي ﷺ مع وفد نجران اختاره أميناً؛ فالخلق لا يبقى مدحاً مجرداً، بل يصبح سبباً لإسناد الأعمال. ومن طلب ثقة الناس بلا سجل من الوفاء فقد طلب ثمرة بلا أصل.

الأمانة تحتاج كفاءة أيضاً. صاحب القلب الطيب إذا قبل مسؤولية لا يعرفها ثم ضيع الحقوق لم يكف حسن قصده. أبو عبيدة رضي الله عنه جمع الصدق والقدرة على ما ولي.

لا تقبل أمانة أكبر من قدرتك إلا ومعها تعلم واستعانة. وإن قبلتها، فاجعل مصلحة أصحابها مقدمة على راحتك وصورتك.

الفصل ٨٤ — ابن مسعود رضي الله عنه

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من السابقين ومن أقرأ الصحابة. قال: «لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة». [١٠٧]. لم تكن منزلته في القرآن سبباً للكبر، بل حمل العلم وبلغه.

طلب منه النبي ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». [١٠٨]. فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] دمعت عينا النبي ﷺ. [١٠٨].

فيها أدب القارئ والمستمع، وتواضع العالم في قبول الحق بصوت تلميذه وصاحبه. العلم الذي لا يلين القلب يحتاج إلى مراجعة. استمع إلى من هو دونك سنّاً أو مكانة إذا حمل علماً نافعاً. لا تجعل معرفتك السابقة تمنع حضور قلبك.

الفصل ٨٥ — ابن عباس رضي الله عنهما

دعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقهه في الدين». [١٠٩]. وكان صغيراً يلزم مواطن التعلم، فبات عند خالته ميمونة ليرى صلاة النبي ﷺ من الليل، فلما قام عن يساره جعله عن يمينه. [١١٠].

جمع حسن السؤال والصبر على التعلم. ولم يجعل صغر السن مانعاً من طلب العلم، كما أن كبار الصحابة لم يجعلوه سبباً لإسقاط رأيه بعد أن ظهر علمه.

التعليم الحسن يحتاج أن يفتح للشاب موضعاً آمناً للسؤال، وأن يختبر فهمه بلا تحقير. والمتعلم يحتاج أدباً يحمله على الاستماع قبل الكلام.

اسأل سؤالاً واضحاً في مسألة تجهلها، ولا تخف من قول «لا أعلم». وإن كنت معلماً، فلا تسخر من بداية السؤال.

الفصل ٨٦ — أنس رضي الله عنه

صحب أنس رضي الله عنه النبي ﷺ خادماً عشر سنين، فحفظ للأمة تفاصيل من المعاملة لا يعرفها إلا من طالت عشرته. قال: ما قال لي أف قط. [١١١].

وحفظ دعاء النبي ﷺ له بالمال والولد والبركة، فرأى أثره في حياته. [١١٢]. لم ينقل أنس رضي الله عنه خبر خدمة فحسب، بل حمل علماً امتد به العمر حتى انتفع به التابعون.

الوفاء للصحبة أن تحفظ خير من أحسن إليك، وأن تؤدي ما تعلمت منه. وليس معنى ذلك كتمان خطأ يجب بيانه، بل العدل في الذاكرة والرواية.

اذكر معلماً أو صاحب فضل، وانقل عنه علماً صحيحاً أو ادع له أو صله. لا تدع مرور الزمن يحو الجميل.

الفصل ٨٧ — سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما

زار سلمان رضي الله عنه أبا الدرداء رضي الله عنه، فرأى اجتهاده الذي أضعف حق أهله ونفسه، فقال له: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا؛ فأعط كل ذي حق حقه». فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «صدق سلمان». [١١٣].

النصيحة جاءت من أخ يرى حال أخيه، ولم تكن دعوة إلى ترك العبادة، بل إلى وضعها في هدي يحفظ الحقوق. قبول أبي الدرداء ونقل الخبر إلى النبي ﷺ دليل صدق في طلب الحق.

قد يدخل سوء الخلق من باب عبادة لم تضبط: يطيل الإنسان نفلاً ويضيع من يعول، أو يتعب نفسه ثم يفرغ ضيقه في أهله. التوازن الشرعي يحفظ الجميع.

اكتب حقوق ربك ونفسك وأهلك في يومك. أصلح حقاً أكلته مبالغة في حق آخر، من غير أن تسقط واجباً.

الفصل ٨٨ — الأنصار رضي الله عنهم

قال الله تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. ونزلت الآية في قصة رجل من الأنصار آثر ضيف رسول الله ﷺ بطعامه وطعام أهله. [١١٤].

ويصل السعدي بين ما وصف الله به الأنصار من محبة المهاجرين وسلامة صدورهم تجاه ما أوتوا، وبين إيثارهم لهم.^[١١٥] فالبذل في هذا المشهد ليس مألأ يخرج مع حسد متجدد ومن، وإنما تصحبه محبة وسعة صدر. ومن تربيتنا على هذا المعنى ألا نقتصر على سؤال: ماذا أعطيت؟ بل نسأل أيضاً: كيف عاملت من أعطيته بعد ذلك؟ وهل أفرح بخير يصله من غيري؟ ولا يجعل المرء الإيثار مبرراً للتصرف في حقوق من يعول؛ وإنما يبذل مما يملك بذله دون تضييع واجب.

وقال النبي ﷺ: «لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً، لسلكت وادي الأنصار».^[١١٦] حفظ لهم نصرتهم ومواساتهم، وداوى ما وجد بعضهم بعد قسمة غنائم حنين بخطاب صادق ردهم إلى فضل الله عليهم.

الإيثار فضل إذا كان في حق يملكه صاحبه، ولا يكون في تضييع واجب على من يعول. وهو أصدق حين تقع الحاجة في الطرفين. قدّم غيرك في شيء تحبه وتملك حقه، واحفظ العمل من المن. إن كان وراءك واجب، فأدّه أولاً.

الفصل ٨٩ — التوبة والاعتذار ورد الحقوق

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك بلا عذر، ولما عاد النبي ﷺ قدم المتخلفون أعتذاراً، أما كعب فصدق. تحمل خمسين ليلة من المقاطعة حتى أنزل الله توبته؛^[١١٧].

قال كعب بعد الفرج: إن من توبته أن يخلع من ماله، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». ^[١١٧]. التوبة ليست اندفاعاً يعاقب به الإنسان نفسه فوق المشروع؛ هي صدق وإصلاح واتباع.

تعلّمنا القصة أن الكذب قد يخفف ألم الساعة ويؤخر النجاة، أما الصدق فقد يشق أولاً ثم يفتح باب الطمأنينة. وإذا تعلق الخطأ بحق إنسان، لم تكف دمة الندم حتى يرد الحق أو يعفو عنه صاحبه.

صح اعتذاراً ناقصاً: سمّ الخطأ، ولا تلم المتضرر، وبين ما ستفعله لإصلاح أثره.

الفصل ٩٠ — أدب الصحابة في الاختلاف

قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». أدركت الصلاة بعض الصحابة في الطريق، ففهم فريق

ظاهر الأمر وآخر الصلاة، وفهم فريق قصد الإسراع فصلى في الطريق. فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ لم يعنف واحداً منهم.^[١١٨]

لا تعني القصة أن كل خلاف صحيح، بل تبين سعة الاجتهاد حين يحتمل النص الفهمين ويكون أصحابه من أهل النظر. أما المسألة التي ظهر فيها الدليل، فالواجب الرجوع.

ووقعت بين الصحابة فتن مؤلمة، وهم بشر غير معصومين. منهج أهل السنة الإمساك عما شجر بينهم، ومحبتهم والترضي عنهم، واعتقاد أن لهم من السوابق والحسنات ما ليس لغيرهم، مع عدم تحويل الوقائع إلى صورة مثالية لا خطأ فيها.

في خلاف اجتهادي، لا تتقل خصمك من دائرة الخطأ إلى دائرة الفسق أو الخيانة بلا حق. ناقش القول، واحفظ سابقة صاحبه وكرامته.

الكتاب السابع — التابعون والسلف مدارس في تهذيب النفس

مدخل الكتاب

ورث التابعون علم الصحابة رضي الله عنهم، ثم حملهم عنهم من جاء بعدهم. نقرأ في حياتهم عناية بالعلم والعبادة وحقوق الناس، ونجد أنفسنا محتاجة إلى ما يوقظها من محاسبة وتواضع وورع. وليس جميع من في هذه الفصول من طبقة التابعين؛ فسفيان وابن المبارك والفضيل وبشر ومعروف من طبقات تالية. يجمعهم هنا النظر في التربية التي تصل العلم بالعمل.

الفصل ٩١ — الحسن البصري ومحاسبة النفس

كان الحسن البصري من كبار التابعين، وله مكانة في العلم والموعظة تظهر في ترجمته عند الذهبي.^[١١٩] ومن المعاني التي يحتاجها قارئ مواعظ السلف أن يرجع بالموعظة إلى نفسه، على أصل قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. المحاسبة عمل يسبق الحساب، وليست احتقاراً للنفس ولا حديثاً عاماً عن التقصير.

من صدق المحاسبة سمى فعله، وسأل عن باعته وأثره، ثم أصلحه. أما من يكرر «نحن مقصرون» ولا يرد حقاً ولا يترك عادة، فقد جعل الاعتراف ستاراً جديداً.

اكتب موقفاً واحداً: ماذا قلت؟ لماذا قلته؟ من تأذى؟ وما الإصلاح الممكن اليوم؟

الفصل ٩٢ — علي بن الحسين والعلم والورع

علي بن الحسين من علماء أهل بيت النبي ﷺ. ونقل الذهبي عن ابن سعد وصفه بالثقة والأمانة وكثرة الحديث والورع. [١٢٠]. هذا التقويم العلمي يردنا إلى قيمة العلم والورع، وإلى أن شرف النسب يصحبه واجب العمل ولا يغني عنه.

قيمة الإحسان الخفي أنه يعالج حب الصورة. فالعمل الذي لا يعرفه الناس يبقى بين العبد وربّه، ويكشف له مقدار حاجته إلى الثناء. والحلم يكشف نفسه حين يملك الإنسان الرد ثم يختار ما هو أصلح.

أخف عملاً صالحاً هذا الأسبوع، ولا تلمح إليه بعد فعله. واجعل كظم كلمة مؤذية جزءاً من هذا الخفاء.

الفصل ٩٣ — سعيد بن المسيب والوقار

كان سعيد بن المسيب من كبار فقهاء المدينة، ووصفه الذهبي بعالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه.^[١٣١] وتدعونا منزلته العلمية إلى النظر في معنى الوقار الذي يحتاجه حامل العلم: سكينة تصحب الثبوت، واحترام للسؤال، وبعد عن طلب الشهرة والخصومة. هذا معنى نتعلمه للعمل، ولا نحتاج إلى اختراع مجلس أو حوار ننسبه إليه.

ومن أدب العالم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم. ومن أدب المتعلم ألا يقيس العلم بكثرة الجواب. الصمت عن مسألة لم تبين أمانة، وليس نقصاً.

إذا سئلت عما لا تعلم، قل «لا أعلم» كاملة، ثم دل السائل على من يثق بعلمه إن استطعت.

الفصل ٩٤ — عروة والقاسم والعلم المؤدب

كان عروة بن الزبير والقاسم بن محمد من فقهاء المدينة، وأخذاً عن عائشة رضي الله عنها علماً. وفي صحيح مسلم أن عائشة أمرت عروة بقاء عبد الله بن عمرو وسؤاله، فلما روى لها خبر قبض العلم طلبت منه أن يعيد السؤال في العام التالي، فأخبرها بمثل ما سمع أولاً.^[١٣٢] في هذا الخبر تعلم وسؤال ومراجعة؛ لم تجعل قرابتها منه

بديلاً عن التثبت فيما ينقله، ولم تجعل سؤاله المتكرر حرجاً ينبغي إخفاؤه.

الأدب مع العلم أن يُنسب إلى أهله، وأن يفرق الناقل بين لفظ الشيخ وفهمه. كما يقتضي أن يحفظ السائل حرمة المجلس، ويحفظ العالم كرامة السائل، فلا يجعل السؤال اليسير موضع استعراض. عند نقل فائدة، اذكر مصدرها إن عرفته، ولا ترفع فهمك إلى منزلة النص.

الفصل ٩٥ — عمر بن عبد العزيز وأمانة المسؤولية

من عناية عمر بن عبد العزيز بالعلم ما ذكره البخاري من كتابه إلى أبي بكر بن حزم يأمره فيه بالنظر في حديث رسول الله ﷺ وكتابته خوف اندراس العلم وذهاب العلماء.^[١٢٣] فالسلطة يمكن أن تكون باباً لحفظ علم ينتفع به الناس، لا مجرد حظ لصاحبها.

ومن مقتضى المسؤولية التي نتعلمها هنا أن يسان العلم من الهوى، وأن تُرد الحقوق إلى أهلها إذا ثبتت. صلاح القصد لا يغني عن إصلاح المال والقرار؛ فالعدل له كلفة تتحملها النفس. والحاكم والمسؤول أحوج إلى من يبين أثر قراره في الضعفاء، لأن كثرة المدح قد تحجب عنه ما يحتاج إلى إصلاح.

إن كانت لك سلطة، فافتح قناة لا يخاف فيها المتضرر من بيان أثر قرارك. ثم أصلح ما ثبت بلا انتقام من الناصح.

الفصل ٩٦ — محمد بن سيرين والورع في الكلمة

قال محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم». [١٢٤]. يتصل في هذه الكلمة العلم بالأمانة؛ ليست القدرة على التأثير شهادة بصحة ما يقال، ولا كثرة الأتباع بديلاً عن المعرفة والتثبت. والورع في الكلمة يمنع من تحويل الظن إلى خبر، ومن نقل ما يضر بلا حاجة.

تزداد الحاجة إلى هذا الخلق حين تكون القصة مثيرة. سرعة انتشارها لا تدل على صدقها، وكثرة ناقلها لا تعفي كل واحد من مسؤوليته. قال الله تعالى: ﴿فَتَّبِعُوا﴾ [الحجرات: ٦].

أوقف خبراً واحداً لم تتحقق منه. لا تنقله بصيغة السؤال إذا كان السؤال نفسه ينشر التهمة.

الفصل ٩٧ — سفيان الثوري والخوف من آفات النفس

كان سفيان الثوري إماماً في الحديث والفقه. ونقل الذهبي عن وكيع عنه قوله: «ما عالجت شيئاً أشد علي من نفسي، مرة علي ومرة لي». [١٢٥]. اعتراف بمجاهدة تتكرر، لا دعوى بلوغ حال

يستغني صاحبها عن محاسبة. ومن تأمل المعنى لم يجعل كثرة علمه شهادة بسلامة كل باعث في نفسه.

حب التقدم لا يظهر دائماً في طلب المنصب؛ قد يظهر في ضيق الإنسان إذا نُسب الصواب إلى غيره، أو في اختياره المسألة التي يبرز فيها بدل ما يحتاجه الناس.

افرح اليوم بصواب ظهر على لسان غيرك، واذكره باسمه. راقب ما يتحرك في نفسك ولا تبرره.

الفصل ٩٨ — عبد الله بن المبارك والأدب والصحبة

روى الترمذي عن عبد الله بن المبارك في تفسير حسن الخلق أنه قال: «هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى».^[١٢٦] تجتمع في هذه الكلمات أبواب المعاشرة: وجه لا يستقبل الناس بعبوس متعمد، وخير يتجاوز الشعور إلى الفعل، وشر يمسكه الإنسان عنهم. وقد يسهل على أحدنا باب ويثقل آخر؛ فيحسن الاستقبال ويقصر في الأمانة، أو يبذل المال ويطلق لسانه، أو يكف أذاه ولا يعين مع قدرته. فلا يكتفي بخصلة لتغطي ما فرط فيه من سائر الخصال.

وبسط الوجه لا يعني أن نلزم المحزون إخفاء حزنه، أو أن نحكم على الناس من ملامح عابرة. المقصود أن نعاشرهم بما نقدر عليه من

البشر، وألا نتعمد إشعارهم بالثقل والاحتقار. قد يكون الإنسان متعباً فيعتذر بأدب، ويحفظ للداخل حقه في جواب كريم. والابتسامة لا تغني عن الحق، لكنها قد تجعل أداءه أرفق بالنفس وأبعد عن المنة.

وبذل المعروف أوسع من المال: علمٌ نافع يبينه صاحبه، ووقت يساعد به محتاجاً، وكلمة تصلح خلافاً، وخدمة يقدر عليها. وهذه أمثلة على تطبيق المعنى، لا ألفاظ مروية عن ابن المبارك. ويمتحن البذل حين لا يعود على صاحبه مدح؛ هل يبقى يحب نفع الناس، أم يضيق بهم لأنهم لم يروا فضله؟ ومن عجز عن حاجة لم يكلف ما لا يطيق، وله أن يعتذر بصدق ويدل على من يستطيع.

أما كف الأذى فيعيد النظر إلى ما نملكه من قوة: لسان، ومنصب، ومال، ومعرفة بأسرار الناس. قد لا نقدر اليوم على نفع كبير، لكننا نقدر على ألا نظلم أو نسخر أو نخون. وليس الكف سلبيةً في موضع تجب فيه النصرة؛ فمن واجبه منع ضرر لا يحسن خلقه بتركه يستمر. وهكذا تتساند معاني الأثر: نعطي ما نقدر عليه من خير، ونمنع ما نملكه من شر، ونحفظ للناس وجوههم وحقوقهم.

تأمل لقاء قريباً ينتظرك: كيف تستقبل صاحبه؟ وأي معروف تستطيع تقديمه؟ وما الأذى الذي ينبغي أن تكفه؟ ليست هذه

الأسئلة اختباراً تمنح به نفسك شهادة صلاح، وإنما وسيلة ترد بها معنى موجزاً من كلام السلف إلى موضعه في حياتك. نسأل الله أن يرزقنا بشراً صادقاً، وبذلاً خالصاً، ولساناً ويداً يسلم الناس من أذاهما.

الفصل ٩٩ — الفضيل بن عياض ومداداة العجب

كان الفضيل بن عياض من أهل العلم والعبادة الذين أفرد لهم الذهبي ترجمة في السير. [١٢٧]. وقراءة حياة العباد تردنا إلى سؤال صلاح العمل وقبوله. قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. لا تكفي كثرة العمل إذا أفسدته نية فاسدة أو خالفت به النفس ما شرع الله.

العجب يرى العمل وينسى التوفيق، ويرى تقصير الناس وينسى عيوب النفس. علاجه شكر الله، والخوف من عدم القبول، والنظر في الحقوق التي بقيت.

بعد عمل صالح، احمد الله الذي أعانك، ولا تبحث عن من يراه. ثم استغفر من نقصه.

الفصل ١٠٠ — بشر الحافي ومعروف الكرخي

بشر بن الحارث ومعروف الكرخي من أعلام الزهد في بغداد، وهما من الطبقات التي جاءت بعد التابعين. [١٢٨]. يذكرنا النظر في حياة

الزهد بسؤال ما الذي يحتاج إليه القلب من الدنيا، وما الذي تحول من وسيلة مباحة إلى شاغل عن واجب.

الزهد خلق في صلة القلب بالدنيا، لا هيئة لباس ولا فقراً مقصوداً لذاته. قد يملك الإنسان مالاً ولا يملكه المال، وقد يترك الدنيا ظاهراً ويبقى أسير نظر الناس.

اترك فضولاً واحداً يشغلك عن واجب، ولا تجعل تركه موضع حديثك مع الآخرين.

الفصل ١٠١ — كيف نقرأ كتب الزهد والتراجم

كتب الزهد والحلية والطبقات خزائن عظيمة، لكنها ليست في درجة واحدة من التوثيق. يُبحث الخبر في أقدم مصدر، وينظر في إسناده، وتقارن طرقه، ولا تنسب الحكمة إلى قائل لمجرد شهرتها.

وإذا ثبت المعنى بدليل صحيح، فلا نحتاج إلى قصة غير متيقنة لتزيينه. الصدق بركة التأليف، وحذف الحكاية أحب من بناء موعظة على نسبة لم تثبت.

عند قراءة قصة مؤثرة، ضع سؤال المصدر قبل سؤال النشر. فإن لم تعرف أصلها، انتفع بالمعنى الثابت من غير نسبة.

الكتاب الثامن — الأئمة الأربعة العلم حين يصير خلقاً

مدخل الكتاب

طلب الأئمة الأربعة فهم الكتاب والسنة، وتعلموا وعلّموا، وتركوا للأمة علماً عظيماً. ومع اختلاف بيئاتهم ومناهج اجتهادهم، تبقى في النظر إلى حياتهم تربية على مسؤولية العلم وترك التعصب. لا يلزم من محبتهم ادعاء عصمة أحد منهم، ولا من الترجيح بين أقوالهم إسقاط حقهم في الاحترام والدعاء.

الفصل ١٠٢ — أبو حنيفة الحلم والورع

أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام من أئمة الفقه في الكوفة. وذكر الذهبي في ترجمته، نقلاً عن العجلي وغيره، أنه كان يبيع الخبز. [١٢٩]. جمع العلم والتجارة يجعل النظر إلى الأمانة في السوق قريباً من النظر إلى الأمانة في القول؛ فالمعاملة ليست باباً بعيداً عن علم الفقيه.

وقرر الذهبي إمامة أبي حنيفة في الفقه ودقائقه تقريراً صريحاً في ختام ترجمته. [١٣٠]. وهذه شهادة المؤلف العلمية، ويقودنا النظر في مسؤولية الإمام والمعلم إلى أدب الوقار؛ ومن معانيه أن يبقى العلم

أكبر من طلب الانتصار للنفس: يُسمع السؤال، وتناقش الحجة، ولا يحتاج المعلم إلى إذلال المتعلم ليظهر منزلته. ومن الوفاء للأئمة أن نفهم مسؤولية العلم، وأن نتأدب بما قام عليه من تعظيم الدليل وحفظ حق المتعلم.

الحلم في الحوار لا يعني ضعف الحجة. العالم الحليم يسمع، ويفرق بين طالب الحق وطالب الغلبة، ولا يجعل قدرة اللسان سبباً لإذلال المخالف. والورع في التجارة يمنع العالم من أن يعلم الناس ما يخالفه في ماله. هذه مسؤولية تلزم من يتكلم في الحلال والحرام، وتدعونا إلى أن نفتش عن أثر علمنا في كسبنا وعقودنا.

وقد تبقى مسائل الاجتهاد موضع خلاف مع حفظ منزلة الإمام. لا يحتاج من يرحح قولاً لغير أبي حنيفة أن يشوه سيرته أو ينتقي الأخبار التي تنقصه، كما لا يحتاج محبه أن يرفع كل حكاية في مناقبه إلى منزلة الحقيقة. ينفعنا من محبته أن نطلب الفقه بجد، ونفهم مأخذ القول قبل الاعتراض، ونجعل أدب الخلاف حاضراً حيث يناقش الناس مسائل العلم.

ومن التطبيق القريب أن يراجع صاحب العلم ما يقوله في مجلسه وما يفعله في عمله. هل ينهى عن الغش ثم يصف خدمته بما يزيد على حقيقتها؟ هل يطالب بالوفاء ثم يتساهل في موعد أو أجر؟ لا

نذكر هذه الأسئلة لننقص أحداً، بل لئلا تصير قراءتنا للسير ثناء على الماضي لا يغير ما بين أيدينا اليوم. إذا ناقشت، أعد حجة مخالفك بأمانة قبل جوابك. وإذا بعت، بين العيب الذي لو سكت عنه زاد ربحك.

الفصل ١٠٣ — مالك وهيبة العلم

كان مالك إمام دار الهجرة، جمع الحديث والفقه. وروى أبو زرعة الدمشقي عن الوليد بن عتبة، عن الهيثم بن جميل أنه شهد مالكا يسأل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.^[١٣١] كثرة المسائل لم تحمله على جواب يتجاوز ما تبين له، فبقيت أمانة العلم مقدمة على رغبة السائل في جواب عاجل.

ليس المراد أن نعظم السكوت لذاته، وإنما أن نرى كيف يحفظ المفتي أمانته حين لا يحضره جواب يعلمه. ومن أثر هذا الأدب خارج مجلس الفتوى ألا يحول المرء ثقته بنفسه إلى كلام في كل شيء. الاعتراف بحدود المعرفة يحفظ حق السائل، وقد تكون كلمة «لا أعلم» أنفع له من جواب متعجل يعجبه في أول الأمر ثم يضره.

هيبة العلم ليست تكلف هيئة، بل خوف من القول على الله بغير علم. ومن تمامها احترام الحديث، وحسن الاستماع، وعدم تحويل

الفتوى إلى جواب سريع لكل سؤال. وقد يظن السائل أن العالم
كلما أجاب عن أكثر كان أعلم، مع أن الامتناع عن الجواب قد
يكون أعظم أمانة في تلك المسألة.

يحتاج هذا الخلق إلى شجاعة أمام توقعات الناس. يدخل المرء مجلساً
وقد أحسنوا الظن به، ثم يسألونه عما لا يحسن. يستطيع أن يحفظ
صورتهم عنه لحظة بكلام مرسل، لكنه يحمل تبعه ما يفهمونه
ويعملون به. ويستطيع أن يقول إنه يحتاج إلى بحث، فيبقى العلم في
موضعه، ويعلمهم بفعله أن السؤال الصادق لا يقابله جواب
مصطنع.

ومن أدب طالب العلم مع شيخه ألا يخرجه بطلب جواب في كل
حال، ولا يعيبه إذا رجع إلى مرجع أو أحال إلى من هو أعلم
بالباب. ومن أدب المعلم أن يبين حدود كلامه: هذا نقل، وهذا
فهم، وهذه مسألة تحتاج إلى تحرير. هكذا يتصل الوقار بخدمة
الحقيقة وحفظ حق المتلقي.

دع مسألة لا تعلمها بلا جواب، واكتبها لتبحثها. السكوت الأمين
خير من ثقة كاذبة.

الفصل ١٠٤ — الشافعي وإنصاف المخالف

يحتاج إنصاف المخالف إلى معرفة حدود علم النفس قبل محاسبة غيرها. فمن ظن أنه أحاط بما في المسألة ضاق بسؤال لم يتوقعه، وربما جعل عدم معرفته بدليل غيره حجة على بطلانه. وفي كلام الشافعي عن تفاوت أهل العلم في معرفة السنة أصل يعين على التحرر من هذا الظن.

ويقرر الشافعي في «الرسالة» أن العلم بالسنة يتسع في الأمة، وقد يفوت الواحد منه ما يوجد عند غيره.^[١٣٢] ومن هذا الأصل ينشأ تواضع علمي له أثر في الأخلاق: لا أجعل ما بلغني حداً لما يمكن أن يعلمه غيري، ولا أحمل كل مخالف على العناد قبل أن أفهم مأخذه. وليس في ذلك تسوية بين الأقوال من غير حجة؛ بل فيه طلب الدليل مع سلامة القصد. فالرجوع إلى الصواب زيادة في العلم، وليس هزيمةً لصاحبه، والإنصاف للمخالف لا يقتضي موافقته على ما نرى خطأه.

يحفظ هذا الأدب للنظر العلمي غايته. لسنا مطالبين أن ندعي الاتفاق حيث لم يقع، لكننا مطالبون بالعدل وترك الإهانة. قد يسمع كل منا حجة الآخر، ثم يبقى على ترجيحه في مسألة اجتهادية، ويستمر التعاون في خير ومصلحة. وإذا ظهر الحق

لأحدهما، فقبوله لا يذهب بكرامته، بل يدل على أن المقصد لم يكن الغلبة.

ومن مداخل فساد الحوار أن يحمل الإنسان كل اعتراض على أنه انتقاص لشخصه. عندها يغلق باب التعلم، ويجمع من الكلام ما يؤذي به صاحبه. يعينه على الخروج أن يفصل بين القول وقائله، وأن يعرف أن المخالفة في مسألة لا تحو ما عرفه من فضل أخيه. كما يعينه أن يترك لجليسه مساحة يرجع فيها بلا شماتة.

ولا يعني الإنصاف أن كل اختلاف هين أو أن لكل رأي الحجة نفسها. المسائل تتفاوت، والعلماء يبينون ويصححون، لكن صحة البيان لا تحتاج إلى ظلم. فليكن في حوارنا القادم إنصاف في نقل الحجة، وهدوء عند الاعتراض، واستعداد لقول: أخطأت، متى ظهر لنا الخطأ.

ادخل حواراً واحداً بنية أن تعرف الحق ولو ظهر على لسان غيرك. إن بان، صرح برجوعك.

الفصل ١٠٥ — أحمد والصبر في المحنة

تذكر المصادر محنة الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وما أصابه من حبس وضرب. وروى ابنه صالح عنه في سيرته قوله: «فجعلت

الميت في حل من ضربه إياي»^[١٣٣]. يتصل في هذا الموقف الثبات على ما يدين به الإمام والعفو في حقه الشخصي.

ليس العفو تصحيحاً لما وقع من أذى، ولا يغير الحق العلمي الذي ثبت عليه. يستطيع المظلوم أن يترك التشفي مع بقاء وصف الظلم ظلماً، وأن يدعو إلى الصواب من غير أن يجعل ألمه وحده قائد كلامه. ومن أجل ذلك لا نخلط بين التنازل عن حق نملكه وبين التنازل عن حق الله أو حقوق الآخرين.

ولا نطالب كل مبتلى أن يملك قوة غيره أو أن يعفو قبل أن ينظر في أمنه ومصالحته. نذكر فضل الصبر والعفو، ونعين المتضرر على حماية نفسه وأداء واجبه وطلب حقه. وقد يكون في قصة إمام عون له على الرجاء، لكن لا يجوز أن نجعلها وسيلة لوم لمن لا يزال يحمل أثر أذى شديد.

إذا قرأنا خبر المحنة، فلنسأل عن امتحاننا القريب: هل نصدق حين يثقل الصدق؟ وهل نحفظ العدل مع من خالفنا؟ وهل نقدر أن نرد الإساءة إلى حجمها دون أن ننقل الخصومة إلى من لا ذنب له؟ الاقتداء يبدأ بما نعلم من واجب حاضر، لا بتمني امتحان عظيم لا ندري كيف ثبت فيه.

اثبت على حق تعلمه، لكن افصل بين نصره القضية والانتقام لنفسك ممن أساء.

الفصل ١٠٦ — التثبت من المناقب

محبة الأئمة لا تبيح نسبة كل جميل إليهم. تراجع المناقب في المصادر الأقدم، وينظر في أسانيدھا وسياقھا، ولا تُجمع أقوال متعارضة ثم تُجعل كلها مذهباً للإمام.

وفي الثابت من علمهم وصبرهم كفاية. حذف قصة لا ينقص قدر الإمام، بل يحفظ حقه أن ينسب إليه ما قال وفعل.

لا تنشر عبارة منسوبة إلى إمام حتى تعرف مصدرها وتحقق من نسبتها إليه. وإذا لم تثبت، فانقل المعنى بلا نسبة إن كان صحيحاً.

الفصل ١٠٧ — تعظيم النص والرجوع إلى الحق

اشترك الأئمة في تعظيم الكتاب والسنة، مع اختلاف مناهجهم في فهم الأدلة وترتيبها. لم يدع واحد منهم العصمة، ولم يجعل قوله مقدماً على حديث ثبت عنده ودل على المسألة.

وقد جمع ابن تيمية في ختام «الواسطية» بين اتباع الهدي والأمر بحاسن الأخلاق والنهي عن البغي والاستطالة.^[١٣٤] وفي هذا ما يحفظ معنى تعظيم النص من أن يتحول إلى تعظيم للنفس؛ فمن انتسب إلى السنة احتاج أن يجاهد نفسه على ما تدعو إليه من عدل ورحمة وصدق، لا أن يجعل صحة انتسابه عذراً لسوء عبارته. ولا يمنع ذلك بيان الخطأ أو رد الباطل؛ لكنه يضبط المقصد

والوسيلة والقدر، حتى لا تلبس نصرة الحق بحظ النفس في الغلبة.

الرجوع إلى الحق يحتاج تواضعاً وعلماً. ليس كل تعارض يظهر بين قول عالم وحديث يحسنه غير المتخصص بحثاً وترجيحاً؛ فقد يكون الحديث منسوخاً أو مخصوصاً أو له معارض. لذلك يجمع طالب العلم احترام النص واحترام أدوات الفهم.

إذا لم تفهم وجه قول عالم، لا تتهمه برد الحديث. اسأل أهل الاختصاص، واحفظ لسانك في حدود ما تعلم.

الفصل ١٠٨ — أدب الاختلاف بين المدارس الفقهية

الاختلاف الفقهي المعتبر لا يفسد الأخوة، ولا يحول صاحبه إلى متهم في دينه. التحقيق يبحث عن الدليل ويفهم مأخذ القول، أما التعصب فيبدأ بالنتيجة ثم ينتقي ما يخدمها.

ومن الأدب ألا تُنقل المسائل الدقيقة إلى العامة بطريقة تُثير الخصومة، وألا يُنكر في مسائل الاجتهاد إنكاراً يساوي بين المختلف فيه والمتفق عليه.

تعلم مأخذ قول فقهي تخالفه من مصدر أصحابه. سيحفظ ذلك لسانك، ولو بقي ترجيحك كما هو.

الكتاب التاسع — أمهات الأخلاق وآفاتها وعلاجها

مدخل الكتاب

قد يعرف الإنسان أسماء الفضائل، ثم يقف في موقف يومي فلا يعرف أيها يطلب منه الآن. أيعفو أم يطالب بحقه؟ أيصمت أم يتكلم؟ أكون ليناً أم حازماً؟ ومن هنا نحتاج إلى معرفة الخلق في أصله وحدوده وثمرته. فالفضيلة لا تؤخذ وحدها حتى تهدم فضيلة أخرى؛ لا يكون الصدق ذريعة إلى كشف الأسرار، ولا تكون الرحمة سبباً لإقرار الظلم، ولا تكون الشجاعة اندفاعاً يضيع به حق من أوّتمن الإنسان عليهم.

وليس المقصود أن نفتش في الناس عن هذه الآفات. أول من يحتاج إلى هذا النظر أنفسنا. قد نجتمع على إنكار الكبر، ثم نرد نصيحة صادقة لأن صاحبها أصغر منا. وقد نذم الشح، ثم نضيق بنفقة واجبة ونستسهل نفقة يرانا بها الناس. نسأل الله أن يدلنا على عيوبنا، وأن يجعل معرفتها باب إصلاح، وألا يشغلنا بعيوب عباده عن تقصيرنا.

الفصل ١٠٩ — الصدق والكذب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. ليست صحبة الصادقين مجلساً نستحسن فيه الكلام عن الصدق، بل بيئة يستقيم فيها الخبر والوعد والاعتذار. وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة». وفي الحديث نفسه بيان الطريق الآخر الذي يبدأ بالكذب وينتهي إلى الفجور. [١٣٥].

يبدأ الكذب أحياناً في عبارة صغيرة يريد بها صاحبها الخروج من حرج: يدعي أنه لم ير الرسالة، أو يجعل ازدحام الطريق سبب تأخره مع أنه لم يستعد للخروج، أو يضيف إلى قصة ما يجعلها أعجب. ثم يحتاج إلى عبارة ثانية تحمي الأولى، ويتعلم أن يحفظ صورته بتغيير الحقيقة. أما الصدق فيحمله ألم الاعتراف مرة، ثم يفتح له باب إصلاح السبب الحقيقي. من قال: تأخرت لأنني لم أحسن تنظيم وقتي، أمكنه أن يتعلم. ومن صنع عذراً مقبولاً كل مرة، بقي العيب مستوراً عن الإصلاح.

ومن الصدق ألا نجزم بما لا نعلم. «لا أتذكر» و«أحتاج إلى مراجعة» و«هذا فهمي» عبارات تحفظ قدر الكلام. ويزداد هذا الواجب في النقل عن الله ورسوله ﷺ، وفي الشهادة على حقوق الناس. وليس كل ما سمعناه خبراً صالحاً للنشر، ولا كل ما وافق

رأينا دليلاً على صحته. نصدق في مواطن محبتنا كما نصدق في مواطن خصومتنا، فلا نحذف من كلام مخالفنا ما يبين مقصده.

والصدق لا يلزم منه أن نحكي كل ما نعلم لكل من سأل. السر أمانة، والخصوصية حق، ومن الأدب أن نقول: هذا أمر خاص لا أستطيع الحديث عنه. بهذا نجمع الصدق وحفظ الحق. أما القسوة التي يتذرع صاحبها بأنه صريح، فليست من تمام الصدق؛ إذ يمكن أن يصف الخطأ بعبارة دقيقة لا تهين صاحبه، وأن يختار وقتاً يستطيع فيه السامع أن يفهم ويراجع.

من أراد التدريب فليلاحظ اليوم ثلاث عبارات يميل فيها إلى التجميل: خبر عن نفسه، ووعد لمستقبل، واعتذار عن تقصير. وليجعل كلامه مطابقاً لما يعلم ويستطيع. فإن خرجت منه عبارة غير صحيحة، فليبادر إلى تصحيحها قبل أن يجره الحرج إلى الدفاع عنها. الصدق الذي نصونه في الصغير يعيننا حين نعظم الامتحان.

الفصل ١١٠ — الإخلاص والرياء

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». ^(١٣٦) والعمل الخلقى يدخل في هذا الباب؛ قد يسكت اثنان عن الإساءة، فيسكت أحدهما ابتغاء مرضاة الله وإصلاح العلاقة، ويسكت الآخر ليقال ما أحله، أو ليجمع على

خصمه حجة يستعملها لاحقاً. الفعل الظاهر متقارب، والقلب محتاج إلى نظر آخر.

ليس معنى ذلك أن ينصرف المرء عن العمل إلى تفتيش لا ينتهي في خفايا نفسه. المطلوب أن يقصد وجه الله، وأن يجدد هذا القصد إذا تحرك حب المدح، وأن يستمر في الخير. إن انتظار صفاء لا يخالطه عارض قد يصبح باباً إلى ترك الطاعة. يأتي الخاطر فيدفعه، ويسمع الثناء فيحمد الله، ويعرف أن ما عنده من خير بتوفيقه، ثم يسأله القبول.

من المواضع التي تكشف حاجتنا إلى الإخلاص تغير معاملتنا إذا لم يذكر فضلنا. يخدم المرء قريباً ثم يغضب لأن غيره شكر، أو يتطوع لعمل ثم يتركه لأن اسمه لم يتقدم. هذه أحوال تستدعي المحاسبة، لكنها لا تبيح لنا الحكم على قلوب الآخرين. نتعلم منها أن نسأل أنفسنا: هل أستطيع مواصلة هذا الخير إذا ذهب الثناء إلى صاحبه الحقيقي أو إلى غيري؟ وهل أفرح بتحقيق النفع ولو لم يعرف الناس دوري؟

وقد يكون إعلان الخير مشروعاً للتعليم أو جمع التبرعات أو بيان الأمانة، فلا يجعل الإخفاء قاعدة تمنع كل مصلحة. العبرة بصدق القصد وحفظ حقوق من يتعلق بهم العمل. لا يجوز أن نجعل حاجة فقير صورة ندعو الناس إلى الإعجاب بنا من خلالها، ونحفظ

خصوصية المستفيد ونستأذنه في نشر قصته. كما أن الإخلاص لا يصلح وسيلة محرمة؛ فلا يُطلب وجه الله بالكذب، ولا يُتقرب إليه بإذلال مسلم.

اختر عملاً يسيراً لا يحتاج إلى إعلان: دعاء لغائب، أو إصلاح أذى في مكان مشترك، أو مساعدة تصل إلى صاحبها بلا حكاية طويلة عنك. ثم راقب نفسك إن أرادت أن تذكره عرضاً. لا تيأس من ظهور هذا الميل؛ استعن بالله على تهذيبه. وإذا أظهرت عملاً لمصلحة، فراجع المصلحة، ولا تجعل كل رغبة في الظهور مصلحة تُصنع لها حجة.

الفصل ١١١ — التواضع والكبر والعجب

سأل رجل عن محبة الثوب الحسن والنعل الحسنة، فبين النبي ﷺ أن الله جميل يحب الجمال، ثم قال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».^[١٣٧] بهذا نعرف أن حسن الهيئة في نفسه ليس كبراً، وأن الثوب البسيط لا يبرئ صاحبه منه. موضع الداء أن يرد الإنسان الحق استعلاءً، أو يحتقر الناس.

ولا بن حزم معالجة مباشرة للعجب: أن يتذكر الإنسان عيوبه، ويعرف مواضع قصوره، وينظر إلى من فاقه فيما اغتر به، ويستحضر أن ما أوتي من فضل فمن الله.^[١٣٨] وليس المقصود احتقار النفس أو إنكار نعم الله، بل إزالة الدعوى التي تحول

النعمة إلى استعلاء. قد يكون الإنسان متقناً لعمله حقاً، ويحتاج مع ذلك أن يتعلم من موظف أصغر منه، أو يقبل تصحيح من لا يساويه في منزلته. والتواضع يظهر حين يصل الحق من طريق لا تختاره النفس، فتقبله لأنه حق.

قد يقبل المرء تصحيحاً من مشهور ويأنف من التصحيح نفسه إذا جاءه من عامل أو طالب صغير. هنا يظهر تعلقه بمكانة القائل أكثر من تعلقه بصحة القول. وقد يتواضع في الألفاظ فيقول عن نفسه كلمات نقص، ثم يعاقب من خالف رأيه أو لم يمدحه. التواضع الصادق أوسع من عبارات نستعملها؛ إنه استعداد لسماع الحق، وأداء ما علينا، ومعاملة الناس بما يحفظ كرامتهم.

والعجب قريب من الكبر، غير أن صاحبه قد ينشغل بعمله دون مقارنة صريحة بالناس. يرى صبره وعلمه وعبادته وينسى توفيق الله وستر التقصير. ومن علاجه أن يشكر على الخير، وأن يتذكر ما بقي من الحقوق، وأن يعلم أن حسن الظاهر لا يغني عن القبول. لا نعالج العجب بإنكار كل نعمة أو الكذب على النفس، بل بنسبة الفضل إلى الله واستعماله في طاعته.

التواضع لا يطلب من المظلوم أن يصف نفسه بما ليس فيه، ولا من صاحب الخبرة أن يخفي مؤهلاته إذا احتيج إلى معرفتها. يستطيع أن يبين ما يعرف وما أنجز من غير تعال، وأن يطالب بحق

ثابت من غير احتقار. ومن التواضع أيضاً أن يقبل المساعدة حين يحتاج إليها، وأن يقول لمن أخطأ في حقه: أصبت في هذه الملاحظة، وإن بقي بينهما خلاف في غيرها.

تأمل طريقة ردك على من يخدمك أو يعمل تحت مسؤوليتك. هل يشكرك الناس على أدب تعرفه أسرتك أيضاً؟ هل يستطيع الأصغر أن يقول لك إنك أخطأت ثم يأمن التعيير؟ جرب أن تشكر مصححاً في حضرة من سمع الخطأ، وأن تقوم بحاجتك إذا استطعت، وأن تنسب الفضل إلى أهله بعبارة واضحة. واذكر وعد النبي ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». [١٣٩].

الفصل ١١٢ — الرحمة والقسوة

قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم». [١٤٠]. الرحمة رقة تحمل على الإحسان ودفع الأذى، ثم تظهر في فعل يناسب حاجة المرحوم. فقد يحتاج المتعب إلى إعفاء من بعض الحمل، ويحتاج المخطئ إلى تعليم، ويحتاج المظلوم إلى حماية تمنع استمرار الاعتداء. ولا يكفي أن نتأثر ثم نترك ما نقدر عليه من نصرة أو خدمة.

من أشد ما يفسد الرحمة أن نجعل الضعف سبباً للازدراء. يتأخر المسن في فهم تعليمات، أو يكرر الطفل سؤالاً، أو يعجز المريض عن عمل كان يقدر عليه؛ فيعامل بعض الناس هذا كله كأنه تعمد للإزعاج. تعيننا الرحمة على أن نفرق بين العجز والتقصير،

وأن نسأل عن السبب قبل اللوم. وليس لنا علم كامل بأوجاع من حولنا، ولذلك ينفع أن يبقى في حكمنا موضع للتثبت والسؤال.

ومن تمام الرحمة ألا نوهم صاحبنا أن كل ما يفعله صواب. تركه يظلم الناس ليس إحساناً إليه، والتستر على أذى متكرر يعرض غيره للخطر ليس رفقا بالمجتمع. قد تكون الرحمة في منع، أو في قرار إداري عادل، أو في إبلاغ من يقدر على الحماية. الفرق بين هذا وبين القسوة أن القرار يقصد الإصلاح وحفظ الحق، ويقف عند القدر اللازم، ولا يضيف تشفياً أو إذلالاً.

وقد نتعب النفس من كثرة خدمة الناس، فيحتاج صاحبها إلى تنظيم واستعانة وراحة مباحة. لا تلزمه الرحمة أن يعد بما يعجز عنه ثم يضيق بأصحاب الحاجات. الاعتذار الصادق خير من موافقة يترتب عليها من أو إخلاف. ومن الأدب أن يدل المحتاج على بديل مناسب إذا لم يقدر، وأن يحفظ سره وكرامته في ذلك.

اسأل اليوم عن حاجة قريبة لا عن عمل بعيد يلفت الأنظار. قد تكون الرحمة أن تجلس إلى والدك دون استعجال، أو تخفف مهمة عن موظف مرهق مع عدل لبقية الفريق، أو تعطي طفلاً وقتاً يفهم فيه. وليكن في سؤالنا دعاء: اللهم ارزقنا قلوباً رحيمة، وأعنا على رحمة لا تضيع حقاً ولا تمنّ على من أحسنّا إليه.

الفصل ١١٣ — الحلم والغضب

قال رجل للنبي ﷺ: أوصني. قال: «لا تغضب». فردد مراراً، قال: «لا تغضب». ^[١٤١]. نحتاج إلى هذه الوصية حين نملك مبررات كثيرة للانفعال؛ فالوصية لا تنتظر أن يصبح الناس جميعاً رفقاء أو أن تسير الأمور كما نحب. إنها تردنا إلى ما كُلفنا به نحن من ضبط النفس وترك أسباب العدوان.

ليس كل شعور بالغضب معصية، وقد يغضب المؤمن لانتهاك حرمة أو وقوع ظلم. لكن صحة السبب لا تجعل كل قول أو فعل يصدر بعده صحيحاً. قد يكون الحق معه في البداية، ثم يعتدي بالسب أو التهديد أو إتلاف المال. ولهذا كان الحلم إمساك النفس عن تجاوز الحد مع القدرة على البيان والمطالبة بالحق. لا يحتاج الحليم أن يزعم أنه لم يتألم؛ يحتاج أن يمنع الألم من أن يصير ظلماً.

ومما يفسر هذا الجمع كلام ابن رجب في «لا تغضب»: تهذيب الأسباب قبل الغضب، ومخالفة ما يأمر به عند هيجانه. ^[١٤٢]. فليست العبرة بادعاء قلب لا ينفع، وإنما بتربية صاحبه على ألا يسلم زمام فعله لانفعاله. ومن علامة التقدم أن يقصر زمن الرجوع إلى الحق، وأن تقل الإساءة، وأن يصير الاعتذار أقرب. هذه علامات للاستبصار لا حساباً يرفع عنا واجب التوبة؛ فالخطأ

الأقل يظل خطأ يحتاج إلى إصلاح، لكن رؤية التقدم تعين على الصبر دون اغترار.

يتسع موضع التدريب إذا عرف الإنسان البدايات الصغيرة لغضبه: مقاطعة متكررة، أو تعب، أو خوف من أن يفهم سكوته ضعفاً. ليست معرفة هذه الأسباب عذراً للإساءة، لكنها تعين على إغلاق مداخلها. يمكن أن يقول: أنا غاضب الآن، وسأعود إلى الحديث بعد أن أهدأ، مع تحديد وقت مناسب إذا كان الطرف الآخر ينتظر حقاً أو قراراً. أما الانسحاب الطويل لمعاقبة الأهل بالصمت فليس هذا المقصود.

وعند الخصومة لا تجعل سجل الحياة كله حاضراً في كلمة واحدة. ناقش الواقعة: ما الذي حدث؟ وما الحق الذي يحتاج إلى إصلاح؟ إن تذكير الزوج أو الابن بكل خطأ سابق قد ينقل النقاش من فعل قابل للتصحيح إلى حكم جارج على الشخصية. ولا تتخذ مرض غيرك أو فقره أو سره سلاحاً لأنك غضبت منه. الأمانة لا تسقط بالغضب.

إذا وقعت الزلة، فالعلم الذي فات في أول الموقف يمكن أن يبدأ بالاعتذار بعده. سمّ ما فعلت: رفعت صوتي، أو قلت كلاماً مؤذياً، وهذا خطأ مني. ثم أصلح أثره بقدر استطاعتك، ولا تجعل اعتذارك متوقفاً على اعتذار الآخر عن خطئه. من حسن

المجاهدة أن نحمل مسؤوليتنا كاملة، وأن نطلب في الوقت نفسه معالجة السبب المتكرر بحديث هادئ أو مساعدة مناسبة.

الفصل ١١٤ — الرفق والعنف

قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». ^(١٤٣). هذا أصل يغير طريقة الإنسان في التصحيح والتعليم والإدارة. يسأل قبل أن يشتد: هل وضحت المطلوب؟ هل فهم المخاطب؟ هل يقدر عليه؟ وهل يحقق صوتي المرتفع حقاً لازماً أم يفرغ غضبي؟

الرفق ليس كلمات لينة فوق طلب غير عادل. من حمل غيره ما لا يطيق، ثم قاله بابتسامة، لم يتم رفقته. يدخل فيه مقدار التكليف، والوقت، ووضوح التعليمات، وإتاحة السؤال، وحفظ الكرامة عند الخطأ. وقد يكون القرار نفسه حازماً، كمنع طفل من إيذاء غيره أو إيقاف موظف عن استعمال يضر بالناس، ثم يؤدي من غير سب ولا تشهير ولا زيادة عقوبة انتقامية.

وفي تعليم العبادة يحتاج المبتدئ أن يعرف ما يصنع، لا أن يسمع وصفاً عاماً بأنه جاهل أو مهمل. نريه الفعل، وندعه يسأل، ونتحقق من فهمه، ونفرك بين الواجب والمستحب حتى لا تختلط عليه المراتب. إن خوف المتعلم من السؤال قد يجعله يكرر الخطأ سراً، ثم

يتوهم المعلم أن صمته دليل فهم. الفرق هنا يعين على بلوغ المقصود العلمي، فضلاً عن كونه خلقاً محبوباً.

ومن مداخل العنف استعجال النتيجة. نريد أن يترك الآخر عادة قديمة في مجلس واحد، أو أن يتقن الابن مهارة من أول تجربة. يتطلب الإصلاح أحياناً تكراراً وتدرجاً، من غير التساهل في خطر عاجل. ومن عجز عن المحافظة على هدوئه في موقف متكرر، فيطلب أن يعينه شخص موثوق في التعليم أو المتابعة، وليعد النظر في ترتيب الوقت والمهام.

ابداً بتغيير صيغة تصحيح واحدة. بدل الحكم على الشخص، صف الفعل وما يلزم بعده: تأخر تسليم العمل، ونحتاج أن نتفق على موعد تستطيع الوفاء به. ثم استمع إلى الجواب، وثبت ما اتفقت عليه. وانظر بعد ذلك إلى أثر هذا الوضوح في الثقة والعمل؛ فالرفق باب فعل مسؤول، لا مجرد صورة لطيفة يحب الناس أن يرونها عليها.

الفصل ١١٥ — العفو والحقد والانتقام

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. اقتران العفو بالإصلاح يعيننا على فهم موضعه. يعفو الإنسان عن حق يملك العفو عنه، ويرجو خيراً يترتب على ذلك، ولا

يتنازل بالنيابة عن حقوق من لا يملكها، ولا يجعل العفو ستاراً
لإبقاء اعتداء على ضعيف.

قد يظن المظلوم أن أمامه طريقين فقط: أن يعفو فيستأنف علاقة
تؤذيه، أو يطلب حقه فيبقى أسير الحقد. والواقع أن له أن يطلب
بحقه بالسبل المشروعة، وأن يضع حدوداً للتعامل، وأن يجاهد قلبه
على ترك التعدي والتشفي. وله أن يعفو عن حق خاص مع بقاء
حاجة إلى الحذر. استعادة الثقة تحتاج إلى سلوك يثبت الأمانة،
ولا يوجبها اعتذار لفظي وحده.

والحقد يستبقي أذى الخصومة في الداخل، حتى يصبح الإنسان
مشغولاً بتعثر خصمه. قد يفرح ببلاء لا صلة له بالمظلمة، أو يرفض
خبراً يبين براءته من تهمة أخرى. هنا يحتاج إلى عدل يتجاوز حرارة
الألم. لا ننكر ما وقع، لكننا لا نأذن له أن يفسد شهادتنا أو يحملنا
على ظلم جديد. ومن الدعاء القرآني: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

ولا يجوز أن نضغط على صاحب ألم بمدح العفو حتى نسكته عن
حق أو طلب حماية. نذكره بالفضل برفق، ونترك له حقه المشروع،
ونعينه على قرار لا يتخذه تحت تهديد أو حرج. وكذلك لا نتخذ
الكلام عن الحدود ذريعة إلى قطع كل صلة عند أول زلة؛ بل
نفرق بين خطأ عارض، ونمط يتكرر، وخطر يحتاج إلى تدخل.

إن أردت أن تتدرب، فابدأ بإساءة يسيرة تملك حقها ولا يترتب على تركها ضرر. اترك تذكير صاحبها بها، ولا تجعل عفوك ديناً يطالبك برده في كل اختلاف. وإذا اخترت المطالبة بحق، فحدد الحق نفسه، وامتنع عن الإهانة ونشر الأسرار. في الطريقتين مجال لعبادة الله، وأنت تسأله قلباً سليماً وعدلاً لا يحمله الغضب على تجاوز.

الفصل ١١٦ — السخاء والشح

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. في الآية افتقار نتعلمه: الوقاية من الشح توفيق نسأله الله، ثم نأخذ بأسبابه. وحذر النبي ﷺ من الشح لما يجر إليه من عدوان واستحلال للمحارم. ^[١٤٤] فالمسألة أكبر من ثقل إخراج مبلغ يسير؛ قد يحمل التعلق بالمال صاحبه على أكل حقوق إخوته أو موظفيه أو شركائه.

يبدأ السخاء الصحيح بأداء الواجب. لا يكون المرء كريماً بحق إذا وسع للضيوف ومنع نفقة تلزمه، أو تبرع ليذكر ثم ماطل عاملاً في أجره. صدقة التطوع فضل، وأداء الحق عدل واجب. ومن المجاهدة أن يفحص الإنسان ترتيب إنفاقه: هل يعطي حيث يظهر اسمه، ويضيق حيث لا يراه أحد؟ وهل يسهل عليه شراء فضول لنفسه ثم يستثقل حاجة ضرورية لغيره ممن تلزمه رعايتهم؟

ويربط ابن القيم السخاء بالشجاعة؛ لأن السخي يقدم على مفارقة محبوبه، ويغلب تعلق نفسه به. ^[١٤٥]. وفي هذا كشف لجانب قد يغيب عنا: ليست المجاهدة مقدار ما يخرج من اليد فحسب، بل ما تغلب عليه النفس من شخ. ولا يقتضي ذلك التهور المالي؛ فالعدل أصل آخر يصحب الشجاعة، فلا يتبرع المرء بحق غيره، ولا يطلب منزلة الكريم بإهمال نفقة واجبة. وقد يكون العمل الأصدق اليوم أداء دين مؤجل، وإن لم يصفق له أحد ولم يحمل اسمه مشروع ظاهر.

وللسخاء أدب يحفظ كرامة الآخذ. لا يكلف المحتاج أن يكرر عرض حاجته أمام الناس، ولا يذكره المحسن كلما اختلف معه بما أعطى. قال تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقد يبلغ الأذى في صورة أو تعليق مبلغاً يحرم الفقير فرحة العطاء. ومن الإحسان أن يختار المعطي طريقة تصل بها المساعدة من غير إحراج.

السخاء لا يقتضي إتلاف المال أو إغراق النفس في ديون تطوع. للإنسان ولأهله حاجات، والإنفاق يحتاج إلى بصيرة واستطاعة. يستطيع محدود الدخل أن يجود بوقته وعلمه وخدمته، وأن يعطي قليلاً من مال يملكه من غير أن يضيع واجباً. وليس مقدار العطاء وحده دليلاً على سلامة القلب؛ ينظر المرء إلى نيته وأمانته في مصدر المال ومصرفه.

ضع صدقة تناسب قدرتك وتستطيع الاستمرار عليها، ولو كانت يسيرة، ثم راقب ما يمنحك عند وقتها. قد يكون المنع حاجة حقيقية تحتاج إلى تعديل، وقد يكون خوفاً مبالغاً فيه من النقص. ابدأ بأداء دين أو حق متأخر إن كان عليك، واجعل الشكر لله حاضراً: هو الذي رزق، وهو الذي وفق للعطاء، ونحن أحوج إلى قبوله من حاجة الناس إلى مدحنا.

الفصل ١١٧ — الإيثار والأثرة

في صحيح البخاري خبر الرجل الأنصاري الذي أضاف ضيف رسول الله ﷺ، ولم يكن عند أهله إلا قوت الصبيان. هيأت امرأته الطعام وأنامت صبيانها، ثم أطفأت السراج، وجعلتا يريان الضيف أنهما يأكلان، وباتا طاويين. وفي الخبر نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].^[١٤٦]. هذا موقف بذل فيه الزوجان من راحتها وطعامها، وحفظاً على الضيف شعوره حين قدمه على أنفسهما.

الإيثار أن تقدم غيرك في حظ يجوز لك بذله مع وجود رغبتك فيه. فلا يستوي أن تعطي شيئاً استغنيت عنه، وأن تنازل عن أمر تحبه لمصلحة أخيك؛ وفي كليهما خير إذا حسنت النية. ومن هنا ينكشف موضع الأثرة في الأشياء التي لا نعتها مالا: صدر

المجلس، والحديث، والراحة بعد يوم طويل، وفرصة التعلم، ونسبة الفضل في عمل مشترك.

وللايثار حدود تحفظ الحقوق. لا يؤثر الإنسان بمال أو تمن عليه، ولا بوقت ألزم نفسه بعقد أن يؤدي فيه عملاً، ولا بحق طفل لا يملك إسقاطه. وليس خبر الأنصاري إذناً عاماً بتعريض من نعوهم للضرر أو الجوع المتكرر. نأخذ منه فضيلة البذل وتقديم الضيف، ونجمعه إلى النصوص التي أوجبت الرعاية والنفقة ومنعت الضرر. الفعل الكريم لا يصبح كريماً إذا كانت كلفته تُحمّل على من لم يرض بها ولا يملك دفعها.

وقد تخفى الأثرة خلف بذل ظاهري. يعطي المرء الآخرين بعض المال، لكنه يحتكر القرار ولا يسمع لهم، أو يترك لهم اختياراً لا يرضى إلا بنتيجته المفضلة. مجاهدة هذه الحال تكون بأن نعرف بأن للناس أذواقاً وحاجات لا يلزم أن توافقتنا، وأن نتنازل في مباح نملكه من غير أن نحول التنازل إلى منّة.

اختر موضعاً صغيراً تكرر فيه المنافسة: وقت استراحة في البيت، أو فرصة لزميل أن يعرض عمله، أو حظك من طعام تحبه. آثر مرة واعلم لماذا فعلت. فإن رغبت أن يلاحظ الناس تنازلك، فهذه دعوة إلى إصلاح النية. وإن لم يستطع غيرك رد الجميل، فلا تجعل قدرتك على الإيثار سبباً لتعاليك عليه.

الفصل ١١٨ — الحياء والوقاحة والنجل المعيق

قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير». [١٤٧]. الحياء المحمود يحجز عن القبيح ويحفظ حرمة النفس والناس. يجعل اللسان أرفع من الفحش، والعين أبعد عن التطلع إلى ما حرم الله، واليد أكف عن الاعتداء. وليس المقصود به خوفاً يمنع صاحبه من أداء واجب أو طلب حق.

ويجعل ابن القيم العفة من الأصول التي تحمل صاحبها على الحياء واجتناب القبائح قولاً وفعلاً. [١٤٨]. فالحياء هنا ليس مجرد ارتباك أمام الناس، بل مانع من القبيح مع معرفة الحق. ومن التطبيق أن يراجع الإنسان حيائه حين يغيب الرقيب: أيمتنع عن الفحش لأنه لا يريد أن يراه الناس، أم لأن الله يراه؟ ثم لا يجعل حيائه مانعاً من سؤال يحتاجه في دينه أو حقه؛ فإن تعلم ما يصحح العبادة والمعاملة من الخير، ولا يصبح ترك العلم فضيلة لأن صاحبه يستثقل السؤال.

حين نستحي من الاعتراف بخطأ فنكذب، لم يحملنا الحياء الشرعي؛ حملنا خوف الصورة. وحين يسكت الإنسان عن أذى يتعرض له خشية لوم الناس، فهو محتاج إلى أمان ومساندة، لا إلى موعظة تزيد صمته. ومن عناية المربي أن يعلم الطفل كلمات الرفض

والإبلاغ، وأن يطمئنه إلى أنه لا يذنب حين يطلب حماية من اعتداء أو تصرف يريبه.

والوقاحة لا تزول بتعلم عبارات المجاملة وحدها. أصلها جرأة على تجاوز الحرمات أو إذلال الناس، وقد يظهر ذلك في تدخل في الخصوصيات، أو سؤال محرج لا حاجة إليه، أو تعليق على هيئة إنسان لا يملك تغييرها. من تهذيب النفس أن نتعلم حدود السؤال: ليس كل ما أثار فضولنا حقاً لنا أن نعرفه، وليس صمت الآخر رضا عن الإلحاح.

أما من يشق عليه السؤال النافع أو الكلام في مجلس، فيستطيع أن يبدأ بخطوات تناسبه: يكتب سؤاله، أو يرسله إلى من يثق به، أو يتدرب على عبارة واضحة في موقف قليل الضغط. هذه وسائل تنظيمية، لا وصفة تضمن زوال كل صعوبة. وإذا عطله خوف مستمر عن حياته ودراسته وعمله، فطلب المساعدة المختصة من الأخذ بالأسباب، ولا يصح أن نحكم على إيمانه من هذه الصعوبة.

ليكن الميزان في موقفك القادم سؤالين: ما الحق الذي أريد حفظه؟ وما العبارة التي تؤديه بأدب؟ قد تكون العبارة: لا أرغب في الحديث عن هذا، أو: أحتاج إلى فهم المسألة، أو: ما حدث آذاني وأريد أن يتوقف. يجتمع في هذه الكلمات حياء يحفظ

حدود الأدب وشجاعة تحفظ الحق، فلا نربي النفس على القسوة ولا على العجز.

الفصل ١١٩ — الشجاعة والجبين والتهور

أخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان أشجع الناس، وذكر فزع أهل المدينة ليلة وانطلاق ناس نحو الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إليه، يقول: «لم تراعوا». [١٤٩]. في هذا الخبر شجاعة تتقدم حيث تقع الحاجة، ثم تطمئن الناس. لا تحتاج إلى توسيع الخبر بتفاصيل لم ينقلها راويه؛ يكفي ما فيه من مبادرة وتحمل للمسؤولية.

وفي بيان ابن القيم للشجاعة يدخل ملك النفس عند الغضب، ولا تنحصر في مواجهة الأخطار الظاهرة. [١٥٠]. وهذه شجاعة قد لا يراها المجلس: أن يستطيع المرء الرد الجارح فيمنعه، أو يرى أن الاعتراف بالخطأ يجرح صورته فيقدمه على حماية الصورة. وليس كل تراجع خوفاً، كما ليس كل إقدام ثباتاً؛ قد يتراجع الإنسان عن باطل بشجاعة، ويتمادى فيه خوفاً من لوم أصحابه. ولذلك نحتاج إلى بصيرة في الغاية، حتى لا نسمي الاندفاع قوة والإنصاف ضعفاً.

الشجاعة الخلقية لا تختص بالخطر البدني. منها أن يعترف المرء بخطأ يترتب عليه رد مال، وأن يشهد بالحق مع ميله إلى قريب،

وأن يرفض مشاركة جماعته في ظلم، وأن يسأل عما لم يفهم وإن خشي أن يظهر قليل العلم. وكل ذلك يحتاج إلى قوة تعين النفس على تقديم ما يرضي الله على راحة عاجلة.

والتهور يتقدم قبل فهم العاقبة أو يتجاوز القدرة والحق. لا يسمى تحدي الخطر لمجرد التصوير شجاعة نافعة، ولا يحق لأحد أن يورط غيره في مجازفة ثم يصف المتحفظ بالجن. في المواقف الطارئة تكون معرفة حدود القدرة، وطلب أهل الاختصاص، وإبعاد الناس عن الخطر من صور الفعل المسؤول. وقد يكون الإمساك عن تدخل لا نحسنه أشجع من الاندفاع الذي نطلب به إعجاب الحاضرين.

لا نعالج خوف النفس بتعيرها، بل بتسمية ما تخافه والنظر في الخطوة الواجبة الممكنة. من خاف الاعتذار يستطيع أن يكتب ما يحتاج إلى قوله، ومن خاف شهادة الحق يستطيع أن يستعين بالقنوات التي تحفظ الحقوق وتراعي سلامة الشاهد. وقد يبقى الخوف حاضراً مع صحة الفعل؛ ليس شرط الشجاعة أن يخلو القلب من الانفعال، بل أن لا يقوده إلى ترك واجب بلا عذر أو إلى ظلم.

فكر في حق تؤجله خوفاً من الحرج: خبر ينبغي أن تصححه، أو دين ينبغي أن تبين حاله لصاحبه، أو حد لازم في علاقة. اختر

له وقتاً وعبرة وطريقاً مناسباً، واستعن بالله. ولا تجعل الشجاعة خشونة؛ يستطيع الإنسان أن يكون ثابتاً رقيقاً، واضحاً قليل الكلام، مستعداً لسماع ما يصح من جواب الآخر.

الفصل ١٢٠ — العدل والظلم والمحابة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. يُختبر العدل حين نكره كما يختبر حين نحب. قد يسهل علينا إنصاف غريب، ثم نلتمس لقريبتنا الأعذار التي لا نقبلها من غيره، أو نرد حجة صحيحة لأن قائلها خالفنا في مسألة أخرى.

العدل يبدأ بالتثبت. لا يصح أن نسمع طرفاً واحداً ثم نجعل بقية الحديث بحثاً عن إدانة الآخر. نسأل عن الوقائع، ونفرق بين ما شاهده الناقل وما فهمه، ونعطي كل طرف فرصة مناسبة للبيان. وفي المسؤوليات المشتركة نعلن المعايير قبل الحكم حيث يمكن، فلا نغير القاعدة بحسب اسم من يطبق عليه القرار.

ومن صور المحابة أن يستعمل الإنسان ما ليس ملكاً خاصاً له لإرضاء أصحابه: يسهل لهم تجاوز الدور، أو يطلعهم على معلومات لا يحق لهم معرفتها، أو يحمل فريقه عملاً خاصاً بقريبه. قد يسمي ذلك خدمة وصلة، لكنه إن أخذ به حق غيره صار ظلماً. يستطيع

أن يحسن إلى قريبه من ماله وجهده، وأن يدلّه على الطريق المشروع، من غير أن يفسد الأمانة التي وليها.

ويحتاج العدل في البيت إلى فهم الحاجات، فلا تكون المساواة الحسابية في كل شيء هي الصورة الوحيدة للإنصاف. للمريض حاجة علاج، وللصغير حاجة رعاية، ولكل حال حكمها. ومع ذلك ينبغي أن يحذر الميل الذي يتخذ اختلاف الحاجة عذراً دائماً للمحاباة. وفي تفاصيل الهبات والنفقات والحقوق يرجع إلى الحكم الشرعي، ولا تُحسم بمجرد الشعور أو العرف الشخصي.

إذا اتخذت قراراً في حق أحد، فاسأل نفسك: هل أقبل القاعدة نفسها لو انعكست الأسماء؟ هل عندي معلومة لم أعطه فرصة لتوضيحها؟ وهل أستطيع بيان السبب دون اتهام للنيات؟ هذه الأسئلة لا تمنح العصمة، لكنها تبطئ حكم الهوى. وإذا ظهر خطأك، فإصلاح القرار جزء من العدل، ولا يجوز إبقاء المظلمة خشية أن يقال إن المسؤول رجع عن رأيه.

الفصل ١٢١ — الوفاء والغدر ونقض الوعد

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وفي الحديث ذكر إخلاف الوعد بين خصال النفاق. ^[١٥١]. هذا وعيد يجعل المؤمن يحذر الخصلة ويصلحها، ولا يبيح له أن

يحكم على باطن كل من تأخر أو نسي؛ تختلف الأعذار والنيات، ويظل الواجب أن يكون الوعد عندنا أمراً مسؤولاً.

كثير من الإخلاف يبدأ قبل موعد التنفيذ، عند موافقة لا نفكر في كلفتها. نخشى أن نخيب السائل فنعده، أو نريد أن نبذو قادرين فنلتزم بما لا نملك. ثم يدفع غيرنا ثمن راحتنا في لحظة الموافقة. لذلك من الوفاء أن يتأني المرء قبل الوعد، وأن يبين ما يستطيع، وأن يفرق بين الرجاء والالتزام: سأحاول، غير: سأفعل في هذا الموعد.

وإذا طراً مانع، فلا نترك صاحب الحق يكتشفه بعد فوات مصلحته. نبادر إلى إخباره بصدق، ونعتذر عن الأثر، ونقترح ما نقدر عليه من إصلاح. لا يحو الإبلاغ كل تقصير، لكنه يحفظ قدراً من الأمانة ويتيح للآخر أن يتصرف. أما الاختفاء وتجاهل الاتصالات ثم الظهور بعذر مبهم، فيزيدان على تعثر العمل كسر الثقة.

ويدخل الوفاء في العقود والديون والعمل، وفي الوعود التي نقطعها للأطفال. ليس لصغر سن الطفل أن نجعل كلامنا عنده وسيلة إسكات لا حقيقة وراءها. كذلك لا يكون الوفاء استمراراً في وعد بمعصية؛ الواجب ترك المعصية، مع الصدق في بيان الرجوع

وإصلاح ما ترتب من حقوق مشروعة. ولا يستغل الإنسان إبهام العبارة لينجو من معنى كان الآخر يفهمه بحق.

راجع التزاماتك المفتوحة، واكتب ما بقي منها لأصحابه. أنجز ما تقدر عليه، واتصل بمن تأخر حقه، ولا تنشئ وعداً جديداً قبل النظر في القديم. إن قلت وعودك وصدقت، كان خيراً من كثرة موافقات تريخ المجالس وثقل الذمم. نسأل الله لساناً صادقاً وذمة أمينة، وأن يعيننا على أداء ما حملناه باختيارنا.

الفصل ١٢٢ — الأمانة والخيانة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. الأمانة أوسع من مال محفوظ في صندوق. تشمل ما أذن لك في استعماله لغرض محدد، وما عرفته بسبب عملك، وما استودعك إنسان من سر، وما تعاقدت على أدائه من خدمة. وهي تظهر بقوة حين تستطيع الخيانة ولا يطلع عليك صاحب الحق.

من الأمانة أن نحسن فهم حدود الإذن. استعارة جهاز لا تبيع تصفح ملفاته، والعمل على حساب مؤسسة لا يبيح استعمال بيانات عملائها لمنفعة خاصة، ومعرفة كلمة مرور لا تجعل كل ما وراءها مباحاً. قد يستطيع المرء الوصول من جهة القدرة التقنية،

ويكون ممنوعاً من جهة الحق. التربية على الأمانة تعلمه هذا الفرق قبل أن تعلمه الخوف من اكتشاف المخالفة.

والإهمال الذي يضيع حقاً يحتاج إلى إصلاح وإن لم يقصد صاحبه الخيانة. من قبل حفظ مال أو إنجاز مهمة فعليه أن يأخذ بالأسباب المعتادة للحفظ والأداء، وأن يبين حدود كفاءته. إذا كان العمل فوق قدرته فطلب المعاونة أمانة، وإخفاء العجز حتى يتضرر الناس مجازفة بحقوقهم. ولا يصح أن يستر المرء خطأه بكلام عن حسن نيته فقط.

ومن أدب الأمانة أن نعطي صاحبها ما يحتاج إليه من بيان: كيف استعمل ماله؟ وما الذي تم من عمله؟ وما الخلل الذي طرأ؟ ولا تكون الشفافية نشرًا لكل سر أمام الجميع؛ إنما يصل البيان إلى من له حقه وبالقدر اللازم. كما لا نسلم أمانة إلى شخص لمجرد إلحاحه إذا لم يثبت أنه صاحبها أو مأذون منه.

اختر أمانة في يدك الآن، واسأل: هل يعلم صاحبها حالها على وجه صحيح؟ هل أحتاج إلى ردها أو ترتيب حفظها أو بيان نقص حدث؟ ثم بادر. وصيانة الأمانة الصغيرة تدريب على الكبيرة، لكننا لا ننتظر التدريب إذا كان حق واجب حاضراً. الاستعانة بالله تصحب الأداء، والاستغفار يصحب جبر ما فرطنا فيه.

الفصل ١٢٣ — حسن الظن والتثبت وسوء الظن

قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث».^[١٥٣] وحذر القرآن من كثير من الظن ومن التجسس [المحجرات: ١٢]. من مواضع هذا الداء أن تتحول الإشارة المحتملة إلى يقين في نفوسنا: لم يجب لأنه يحتقرني، أو لم يزر لأنه لا يحبني، أو نجح لأنه أخذ ما ليس له. قد يكون لكل واقعة أكثر من تفسير، فلا نمنح تفسيرنا حكم الشهادة.

وينبه السعدي عند آية الظن إلى ما يترتب على الظن السيئ الذي لا يقوم على حقيقة وقرينة من كلام وأفعال محرمة، وإلى صلته بالتجسس والغيبة.^[١٥٤] فلا نقف عند الخاطر العابر وحده، بل ننظر: هل حولناه إلى تهمة، ثم إلى بحث عن عورات، ثم إلى خبر نشره؟ قطع هذه السلسلة من مجاهدة النفس. ولا يمنع حسن الظن التثبت المشروع أو اتخاذ احتياطات تدعو إليه قرائن معتبرة؛ الفرق بينهما أن الاحتياط يحفظ حقًا بقدر الحاجة، والتهمة تنسب الشر بلا بينة وتسترسل في إشاعته.

حسن الظن يعين على كف الأذى حتى يتبين الأمر، لكنه لا يلزم بإهمال وسائل الحفظ المعقولة. توثيق الديون، وضبط الصلاحيات، والسؤال عن أهلية من نأتمنه، أمور تجمعها الأمانة والاحتياط. ويمكن أن نحسن الأدب مع إنسان وأن نمتنع عن

تسليمه مآلاً لا نعرف قدرته على حفظه. لا نجعله متهمًا بلا بينة، ولا نجعل الثقة العامة بديلاً عن التحقق حيث يتعلق حق.

إذا ألم بك خاطر، فلا تجعل ظهوره حكماً نهائياً على قلبك أو على صاحبك. انظر ماذا تفعل بعده: هل تسترسل في جمع القرائن المنتقاة؟ هل تفتش في خصوصيته؟ هل تنشر التهمة في صورة سؤال؟ أم تقول لنفسك إنك لا تعلم، وتطلب توضيحاً مشروعاً إذا كان الأمر يهملك؟ مسؤولية العمل بالظن أوسع من مجرد مرور احتمال غير مقصود.

ويختلف التثبت المشروع عن الاستجواب المهيمن. من حَقك أن تسأل عن تأخر عمل اتفقت عليه، لكن لا تحتاج إلى اتهام صاحبه بالكذب قبل أن يجيب. ومن حَقك أن تحمي نفسك من نمط أذى ثبت بالتكرار، ولا يلزم أن تلغي الوقائع بحجة حسن الظن. اجمع بين العدل في وصف الماضي والحذر المناسب للمستقبل.

في الموقف القادم، افصل بين ثلاث جمل: ما رأيته، وما فهمته، وما لا تعلمه. اكتبها إن احتجت. كثير من الخصومات يقصر حين نتبين أن جزءاً كبيراً مما جزمنا به كان تفسيراً. وإن ظهر أن ظننا أضر بأحد، فتصحح ما نشرناه والاعتذار عن الاتهام أصدق من الاكتفاء بقول إننا كنا قلقين.

الفصل ١٢٤ — الستر والنصيحة والتشهير

قال رسول الله ﷺ: «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة».^[١٠٤] الستر يحفظ على الإنسان باب الرجوع، فلا تحول زلته إلى مادة يتداولها الناس للفضول والتسلية. ومن ذاق ستر الله على عيوبه استحيا أن يتتبع زلات عباده بلا حاجة مشروعة.

والنصيحة تقصد خير المنصوح ومن يتعلق بهم فعله. تبدأ بفهم ما حدث، ثم بيان الخطأ ودليله وما يمكن إصلاحه، مع اختيار مخاطب وطريقة يناسبان الحال. قد تكون كلمة بين اثنين كافية، وقد يتعلق الأمر بحق عام يحتاج إلى إجراء أو بيان أوسع. ليس السر شرطاً في كل إنكار، كما أن العلانية ليست علامة شجاعة في كل حال؛ ينظر في الحق والمصلحة ومقدار الحاجة.

وضبط النووي الكلام الذي يباح لحاجة شرعية بأنه لغرض صحيح لا يمكن الوصول إليه إلا به، ثم ذكر التظلم، والاستعانة على إزالة المنكر، والاستفتاء، والتحذير والنصيحة، وغيرها من المواضع المبينة في الباب.^[١٠٥] فلا يكون الستر منعاً للمظلوم من الشكوى، ولا تكون النصيحة باباً مفتوحاً للتشهير. ومن تطبيق هذا الضابط أن نحدد الجهة القادرة على المعالجة، وأن نذكر القدر الذي تحتاجه، وألا نضم إليه عيوباً لا صلة لها بالمشكلة. وينبه النووي إلى إمكان

دخول الحسد في صورة النصيحة؛ ولذلك يحتاج الناصح أن يراجع قصده كما يراجع صحة خبره.

إذا ترتب على كتمان الأمر استقرار اعتداء أو تضييع مال أو تعريض طفل لأذى، فليست مطالبة المتضرر بالصمت سترًا محمودًا. يبلغ من يقدر على الحماية والإصلاح، ويذكر القدر اللازم من الوقائع، ويحفظ الأدلة بطريقة مشروعة وآمنة. لا يلزم أن ينشر التفاصيل للجمهور، ولا أن يواجه المعتدي وحده إذا خشي ضررًا. المقصود منع الأذى وإيصال الحق إلى أهله.

والتشهير يغلب عليه قصد الإذلال أو يتجاوز مقدار البيان النافع. قد يبدأ بنقد صحيح، ثم يضيف أسرارًا عائلية أو صورًا لا صلة لها بالخطأ، أو يدعو الجمهور إلى السخرية. حتى من أخطأ تبقى له حقوق لا يرفعها خطؤه. ومن أمانة الناصح أن يصحح كلامه إن ظهرت براءة من جانب مما ذكره، وألا يخفي التصحيح لأن المنشور الأول نال انتشارًا.

قبل أن تكتب عن إنسان، اسأل: ما الضرر الذي أحاول دفعه؟ من يحتاج إلى هذه المعلومة؟ هل عندي دليل على ما أقول؟ وهل يمكن بلوغ المقصود بقدر أقل من الكشف؟ ثم استخر الله واستشر في العضلات من يجمع العلم والأمانة. ولا تجعل لذة الفضيحة تتكلم في نفسك باسم الغيرة على الحق.

الفصل ١٢٥ — التثبت في الأخبار وإشاعة الكذب

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ليست أمانة الخبر خاصة بمن أنشأه؛ للناقل نصيب من المسؤولية حين يقدمه للناس. وفي زمن يسهل فيه نسخ الكلام، قد يتوهم المرء أن الضغط على زر الإرسال فعل صغير لا يحتاج إلى تفكير، مع أن أثره قد يتسع إلى مال أو سمعة أو خوف يصيب أسراً كثيرة.

أول التثبت أن نعرف نوع ما بين أيدينا. هل هو نص أصلي، أم نقل مختصر، أم رأي، أم صورة فقدت سياقها؟ ومن قائله؟ ومتى قيل؟ وهل تغيرت حاله؟ وما الدليل على نسبته؟ ليس كل خبر قديم كاذباً، لكنه قد يصبح مضللاً إذا عرضناه كأنه حدث اليوم. وليس كل اقتباس صحيح الكلمات صحيح الدلالة إذا حذفنا ما قبله وما بعده.

والنفس أسرع تصديقاً لما يوافق محبتها أو خصومتها. لذلك من العدل أن نزيد التثبت حين نشعر بفرح سريع لأن الخبر يخرج مخالفاً أو يمدح جماعتنا. لا نطلب للخبر الذي نحب دليلاً أقل، وللخبر الذي نكره دليلاً أكثر. وهذا من مجاهدة الهوى في باب العلم، ومن حفظ اللسان من المشاركة في ظلم لا نراه مباشرة.

إذا تبين خطأ ما نشرناه، فالمطلوب تصحيح يصل إلى من وصله
الخطأ بقدر الاستطاعة. حذف المنشور قد يمنع امتداداً جديداً،
لكنه لا يخبر من قرأه أن المعلومة غير صحيحة. نكتب بياناً واضحاً
دون إعادة التفاصيل المؤذية بلا حاجة، ونعتذر ممن تضرر، ولا
ننقل المسؤولية كلها إلى المصدر الذي وثقنا به. الثقة لا تعفينا من
واجب الرجوع حين يظهر الخطأ.

اجعل بين رغبة النشر وفعل النشر سؤالاً واحداً ثابتاً: ما الذي
أعلمه على وجه يمكنني أن أتحمّل مسؤوليته؟ إذا لم تجد جواباً، فدع
الخبر. ليس فوات سبق الإرسال خسارة تستحق أن نعوضها بكلمة
لا نعلم صدقها. ومن بركة الصمت أن يصون حق إنسان لا يعرف
أننا كدنا نؤذيه.

الفصل ١٢٦ — المداراة والمداهنة

في حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ،
فذكر النبي ﷺ ما يحذر من سوء حاله، ثم تطلق في وجهه وانبسط
إليه. ولما سألت عائشة عن ذلك بين سوء منزلة من يتركة الناس
اتقاء شره. ^[١٥٦] اجتمع في الموقف بيان صادق يحتاج إليه من
حضر، وحسن معاملة عند اللقاء، من غير فحش ولا تزكية
للباطل.

المدارة أن تختار من الرفق وحسن الخطاب ما يدفع شراً أو يقرب خيراً، مع حفظ الصدق والحق. أما المداهنة فتدخل حين يترك المرء واجباً أو يزين باطلاً طلباً لرضا إنسان أو منفعة. يمكن أن تستقبل مخالفاً بأدب، وأن تتعاون معه في مباح، ثم تقول بوضوح إنك لا تستطيع المشاركة في فعل محرم أو شهادة غير صحيحة.

وقد يشبه الأمر على من اعتاد أن يرى في الشدة دليل صدق. يظن أن اللين مع صاحب خلق صعب نفاق، مع أنه لم يكذب له ولم يعنه على ظلم. ليس الواجب أن يظهر كل ما في نفوسنا لكل من نلقاه. كما أن الابتسامة لا تعني إسقاط الحقوق أو فتح الأسرار أو إلغاء الحذر. يستطيع المرء أن يحفظ لسانه وأن يضبط حدود تعامله في آن واحد.

ومن جهة أخرى قد يسمي إنسان سكوته عن تزوير أو استغلال مدارة، لأن الاعتراض يكلفه مكانة أو راحة. هنا يحتاج إلى صدق مع نفسه: ماذا تركت؟ ولمن ترتب الضرر؟ وهل بقي طريق مشروع أستطيع به بيان الحق أو منعه؟ تختلف القدرة والأحوال، لكن تغيير أسماء الأفعال لا يغير حقائقها، ولا يجعل رضا الناس غاية مقدمة على رضا الله.

إذا احتجت إلى رفض، فليكن قصيراً صادقاً: أحترمك، لكن لا أستطيع أن أوافق على هذا؛ أو: أستطيع المساعدة بالطريق المشروع

الآتي. لا تضيف إهانة، ولا تعد بما لا تنوي. الرفق في العبارة يعين على احتمال الرفض، والثبات في الموقف يحفظ حدود الحق.

الفصل ١٢٧ — التغافل المحمود والإهمال المذموم

قال الله تعالى في خبر من أخبار بيت النبوة: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]. من المعاني التي تندبرها في هذا الإعراض أن استيفاء كل جزئية في العتاب ليس لازماً دائماً. فقد يبلغ البيان مقصده، ويكون تجاوز بعض ما لا تتعلق به مصلحة لازمة أدعى إلى بقاء المودة وإمكان الرجوع.

التغافل المحمود اختيار وإع لترك تتبع هفوة لا يتوقف على كشفها حق واجب. كزلة لفظ عارضة لا يقصد بها أذى، أو نسيان يسير أصلح صاحبه أثره، أو تفصيل لا ينفع تذكير الناس به. لا يلزم أن يعلن المتغافل أنه رأى ثم تجاوز؛ فقد يفسد هذا الإعلان ستره ويعيد الحرج الذي أراد رفعه.

أما الإهمال فترك ما يلزم حفظه أو متابعته. لا يصح التغافل عن خطر على طفل، أو تكرار عدوان في العمل، أو اختلال حساب يؤثر في أموال الناس. وليس كل من طلب التوضيح متصيداً للأخطاء، كما ليس كل من سكت حليماً. تنظر النفس في الواجب والأثر، وتفرق بين راحة الفرار من المواجهة وبين مصلحة حقيقية في عدم الاستقصاء.

وفي الحياة الزوجية والأسرية يضيق العيش إذا استدعى كل نقص محاكمة. يمكن أن تتفق على الأمور الأساسية، ثم نترك مساحة لاختلاف العادات والأذواق. فإذا تكرر أمر مؤذٍ، نناقشه في وقت هادئ بدل جمعه شهوراً ثم تفجيره في خصومة لا يعرف الطرف الآخر بدايتها. التغافل لا ينبغي أن يكون خزاناً سرياً نحفظ فيه بالأخطاء لنستعملها وقت الغضب.

اختر هفوة يسيرة وقعت اليوم، واسأل هل يحتاج حق إلى إصلاحها الآن. إن لم يحتج، فتركها بلا منّة. واختر في المقابل مسؤولية تؤخر متابعتها تحت اسم التغافل، فقم بها بأدب. بهذين العاملين نتعلم النفس أن الرفق لا يناقض اليقظة، وأن حفظ العلاقة لا يتطلب إلغاء النظام والحقوق.

الفصل ١٢٨ — المزاح والجد وحدود الأذى

قال الصحابة للنبي ﷺ: إنك تداعبنا. فقال: «إني لا أقول إلا حقاً». ^[١٥٧] يفتح هذا الحديث باب الأنس، ويضع للسان حد الصدق. لا يحتاج إضحاك الناس إلى خبر مختلق يصدقونه، ولا إلى سخرية من عيب أو إفشاء سر.

المزاح الحسن يراعي من يسمعه، ووقته، ومقدار ما يحتمله. قد تستحسن جماعة عبارة ويصمت صاحبها المخرج خوفاً من أن يتهم بضيق الصدر. ليس ضحك الحاضرين دليلاً على رضا من وقع عليه

المزاح. إذا قال إنه تأذى، فالأدب أن نكف ونعتذر، لا أن نجعله موضوع مزاح جديد لأنه طلب احترامه.

وتظهر الحاجة إلى هذا الخلق في العلاقات غير المتكافئة. مزاح المدير مع الموظف، أو الكبير مع الصغير، قد يصعب رفضه. ومن كان له نفوذ فمسؤوليته أكبر في ألا يستعمله لتطبيع الإهانة. كذلك لا يدخل في المرح تخويف إنسان، أو العبث بماله أو حسابه، أو نشر صورته المخرجة بغير إذنه ثم الاكتفاء بقول: كنا نمزح.

وللجد حقه. حين يعرض صاحبك ألماً أو يطلب اعتذاراً، قد يكون المزاح هروباً من سماع ما عليك. أحسن الإنصات أولاً، ولا تقطع دمعة أو شكوى بتخفيف لا يراعي حالها. وحين يحين وقت العمل أو الصلاة أو أداء أمانة، لا تجعل خفة المجلس سبباً في تضييع الواجب. الأُنس الذي يحفظ الحقوق أطيب وأبقى من فرح يحتاج بعده إلى اعتذارات كثيرة.

راجع ما يضحكك: أهو مفارقة مباحة وكلمة صادقة، أم سقوط إنسان في الحرج؟ وتعلم أن تصنع الأُنس من مشاركة طيبة وسؤال لطيف وموقف مباح، لا من اختيار أضعف الحاضرين هدفاً. إن ترك نكتة مؤذية مع قدرتك على إضحاك المجلس بها مجاهدة صغيرة يظهر بها احترامك لمن أمامك.

الفصل ١٢٩ — الصمت والكلام وحفظ اللسان

قال النبي ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».^[١٥٨] لا يجعل الحديث الصمت غاية في ذاته؛ يجعل الخير ميزان الكلام. فتعليم محتاج، وشهادة حق، وسلام، ودعاء، واعتذار، وكلمة تسلي مصاباً، أبواب خير لا يتم حسن الخلق بتركها.

وفي شرح ابن رجب لحديث «فليقل خيراً أو ليصمت» عناية باجتماع الإيمان وأدب القول.^[١٥٩] ومن ثم لا يكفي أن تكون العبارة فصيحة أو مسلية؛ ننظر إلى صدقها وحق قائلها فيها وما تتضمنه من نفع أو أذى. وقد نحتاج إلى جملة أقل زخرفاً وأكثر عدلاً: أن نصف الفعل بدل أن نحكم على النيات، وأن نميز ما شاهدناه مما سمعناه، وأن نقول «لا أعلم» حين تنتهي معرفتنا. هذه تطبيقات ترد الكلمة إلى مسؤوليتها، فلا تكون خفة تداولها سبباً لخفة حسابنا لها.

قد يكون الكلام صحيحاً لكنه لا يحتاج إلى أن يقال في هذا المجلس أو بهذه العبارة. وقد يكون السكوت مريحاً للنفس لكنه يترك مظلوماً بلا شهادة نملكها. نحتاج لذلك إلى علم بالموقف وقصد صالح، لا إلى قاعدة تمنع كل قول أو تبيح كل صراحة.

ومن علامة رشد الكلام أن يعرف صاحبه ما يريد إيصاله، وأن يقف عندما يبلغ المقصود.

ومن آفات المجالس المقاطعة واستباق الجواب. يحكي إنسان تجربة فينصرف السامع إلى البحث عن تجربة أكبر يرويها عن نفسه، أو يسأل محتاج سؤالاً فيجيبه غيره قبل تمامه بما لا يتعلق بحاجته. الإنصات عمل خلقي؛ يعطي المتحدث حق الفهم، ويمنعنا من أن نجعل كل مجلس طريقاً إلى ذواتنا.

ويحتاج اللسان المكتوب إلى مثل ما يحتاجه المنطوق. الرسالة الساخطة تبقى وتنتقل، وقد يقرأها صاحبها في وقت لا يسمع فيه نبرة اعتذار تداركها كلاماً شفهياً. من الحكمة أن تؤخر إرسال ما كتبناه في شدة غضب، ثم نقرأه على ضوء الحق الذي نطلبه. نحذف اتهام النية، ونحدد الواقعة، ونترك الباب لتوضيح لم نسمعه.

جرب في حوارك المقبل أن تسمع حتى يتم صاحبك مقصده، ثم تعيد ما فهمت باختصار قبل أن تجيب. وجرب أن تترك تعليقاً لا يضيف خيراً ولو كان بارعاً. هذه أعمال صغيرة، لكن المحافظة عليها تغير تجربة من يجالسنا، وتجعل الكلام أمانة تؤديها بدل أن يكون عادة لا نراجعها.

الفصل ١٣٠ — الغيبة والنميمة والسخرية والفحش والمرء

عرّف النبي ﷺ الغيبة بقوله: «ذكرك أخاك بما يكره»، ثم بين أن وجود ما نقول فيه هو الغيبة، وأن عدم وجوده بهتان. [١٦٠]. بهذا يسقط عذر شائع: أنا لم أكذب. صحة العيب لا تمنحنا حق حكايته بلا حاجة معتبرة. وقد تقع الغيبة بالإشارة أو التقليد أو نشر صورة كما تقع بالتصريح.

والنميمة تنقل الكلام على وجه الإفساد بين الناس. جاء فيها الوعيد: «لا يدخل الجنة نمام». [١٦١]. نخاف الوعيد ونتوب من سببه، ولا نجعله حكماً منا على مصير شخص بعينه. ومن رد النميمة ألا نطلب تفاصيل تزيدها، وألا نحمل نقل شخص واحد على أنه صورة كاملة لما قاله الآخر أو أراده. يمكن أن نقول للناقل إننا لا نزيد كلاماً يفسد العلاقة، وإن كان ثمة حق يحتاج إلى معالجة فليعرض على وجه التثبت والإصلاح.

والسخرية تناقض الكرامة التي يجب أن نحفظها. نهى الله أن يسخر قوم من قوم، ونهى عن اللمز والتنايز بالألقاب [الحجرات: ١١]. يدخل في المجاهدة أن نترك لقباً اشتهر به شخص وهو يكرهه، وألا نستعمل أصله أو لهجته أو فقره مادة للضحك. لا يزول الأذى لأنه تكرر حتى صار عادة في الأسرة أو العمل.

أما الفحش فيقبح اللفظ والمعنى ويجرى المجلس على مزيد من الانتهاك. ويجعل المرء الخلاف منافسة لا تنتهي حتى يخضع الآخر. من العلاج أن نعرف موضع توقف الحوار: إذا بين الدليل، وظهر موضع الاتفاق والاختلاف، ولم يبق إلا تكرار وارتفاع صوت، فصرف الكلام إلى ما ينفع أدب. ليس ترك الخصومة عجزاً عن المجعة، ولا يلزم أن تكون لنا الكلمة الأخيرة.

عند وقوع غيبة أو إساءة، يبدأ الإصلاح بالكف والندم والعزم، ثم جبر الأثر بما يناسبه. إن نُشرت تهمة باطلة وجب تصحيحها، وإن تعلق حق خاص بطلب طريق رده. وفي كيفية التحلل من غيبة لا يعلم بها صاحبها تفاصيل يسأل فيها أهل العلم، لئلا يتحول طلب الإصلاح إلى إحداث أذى أكبر. لا نكتفي بحسنة عامة لنؤجل حقاً نستطيع إصلاحه الآن.

الكتاب العاشر — مجاهدة النفس واكتساب الخلق

مدخل الكتاب

حين يعرف العبد فضل حسن الخلق، ويبصر عيباً في نفسه، يبدأ سؤال العمل: كيف أتغير؟ قد يكون قد حاول من قبل ثم عاد إلى عادة يكرهها، فيخشى أن تكون طباعه باباً مغلقاً. لكن الأمر والنهي والدعاء والتوبة تدعوه إلى سعي جديد. لا يملك أن يضمن لنفسه التوفيق، لكنه يستطيع أن يستعين بالله ويأخذ بسبب ويصلح زلة ويكرر خيراً.

قال النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز». [١٦٢]. تجتمع في هذه الكلمات همة العمل وافتقار القلب. لا يترك الأسباب اعتماداً على دعاء لا يصحبه سعي، ولا يتعلق بقدرته حتى يغفل عن ربه. ونحن نحتاج إلى هذا الجمع في كل عودة إلى النفس، وفي كل يوم نرجو أن يكون ما بعده أحسن مما قبله.

الفصل ١٣١ — إمكان اكتساب الخلق وحدود الدعوى

قال النبي ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله». [١٦٣]. في التصبر مباشرة لما قد يشق أول الأمر، وفي الوعد تعلق بفضل الله. ليس كل صبر

سهلاً من بدايته، ولا كل رفق يصدر عن نفس لا تعرف الغضب. يمكن أن يمسك الإنسان لسانه وهو يجد مشقة، ويكرر ذلك محتسباً، حتى يألف فعلاً لم يكن يألفه.

ومما يحرر رجاء التغيير ما قرره الغزالي في رياضة النفس: المطلوب ليس محو القوى التي جبل عليها الإنسان، بل تهذيبها وتوجيهها، مع اعتبار تفاوت الناس واستحكام عاداتهم.^[١٦٤] فليس كل تأخر عن صورة يتخيلها المرء لنفسه عجزاً عن الإصلاح. قد يتقدم في فعل ظاهر، ثم يحتاج إلى زمن حتى تخف مقاومة الداخل له. ولا يبيح هذا التأخر أذى الآخرين؛ إنما يدعو إلى الجمع بين منع الخطأ الآن، والصبر على تربية النفس حتى يسهل عليها الصواب.

وتختلف النفوس في ما ييسر لها وما يثقل عليها. قد يكون أحدنا سريع البذل شديد الغضب، ويكون آخر واسع الحلم شديد التعلق بالمال. لا تنفي هذه الفروق المسؤولية، لكنها تعين على اختيار موضع المجاهدة. ليس من الحكمة أن نقيس بداية شخص بنهاية تجربة شخص آخر، أو نحكم على من يحتاج إلى تدريب أكثر بأنه لا يريد الخير.

ومن صدق السعي أن نحدد الخلق في فعل يمكن ملاحظته. عبارة «سأصبح حسن الخلق» مقصد واسع، لكن من تطبيقاته ألا أقاطع المتحدث، أو ألا أرسل جواباً وأنا منفعل، أو أن أرد ما

استعمرته في موعده. نختار فعلاً، ونعرف موضع وقوعه، ونراجع أثره. لا نحتاج إلى تحويل الحياة كلها دفعة واحدة إلى جدول مرهق ينقطع سريعاً.

والاكتساب لا يعني أن نبلغ عصمة من الزلل، ولا أن تنتهي المجاهدة في عدد معلوم من الأيام. قد يتحسن اللسان ويبقى القلب محتاجاً إلى إصلاح، وقد ينجح المرء في العمل ويضعف في بيته. لا نهون هذا التفاوت، بل نجعله دليلاً إلى الخطوة التالية. كل توفيق نشكر الله عليه، وكل تقصير نعود منه، ولا نجعل نجاحاً سابقاً شهادة دائمة لأنفسنا.

الفصل ١٣٢ — معرفة عيب النفس بلا احتقار لها

قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]. قد يعرف المرء ما فعل، ثم يكثر حوله الكلام حتى لا يواجه اسمه. يقول: كنت مضغوطاً، أو لم يقصدوا احترام وقتي؛ وهذه أمور قد تحتاج إلى معالجة، لكنها لا تغير حقيقة سب صدر منه أو حق أضاعه.

ويذكر الغزالي لمعرفة عيوب النفس طرقاً منها صحبة من يبصر بآفاتهما، وسؤال صديق صادق، والانتفاع بما يكشفه نقد الخصم، والنظر إلى عيوب الناس ليتفقد المرء مثلها في نفسه. ^[١٦٥]. ويمكن الانتفاع بهذه المعاني دون تسليم النفس لكل ناقد؛ فتميز نصحاء

محددًا من إهانة، وقرينةً من تهمة، ومعرفةً من تحكم. ولسنا ملزمين بطلب نقد من يؤذينا، ولا بقبول تشخيص غير المختص. لكننا نحتاج إلى باب صادق يصل منه التصحيح، حتى لا نصنع حول أنفسنا مجلسًا لا يقول إلا ما نحب.

الحاسبة النافعة تصف فعلاً قابلاً للإصلاح: تأخرت عن الوفاء، أو سخرت من سؤال، أو كتمت معلومة يحتاجها صاحب الحق. أما قول الإنسان عن نفسه إنه شر محض لا يرجى منه خير، فلا يعينه على رد حق ولا يوافق سعة باب التوبة. نندم على الذنب ونعظم أمره، ونرجو رحمة الله، ونبقى مسؤولين عن الخطوة الممكنة.

ومن وسائل معرفة العيب سؤال أمين يعرفنا في حال عادية، لا في المناسبات فقط. نطلب منه مثلاً واضحاً، ونسمع قبل الدفاع. قد يخطئ الناصح في بعض فهمه، فنأخذ ما صح ونوضح ما احتاج إلى بيان. ليس قبول النقد تصديقاً بكل اتهام، ولا يجوز أن نسلم أنفسنا لمهين يجعل النصيحة وسيلة تحكم.

خصص آخر اليوم لدقائق يسيرة: ما الفعل الذي أحمد الله على إعانتي عليه؟ وما الخطأ الذي يحتاج إلى توبة أو حق؟ وما سبب تكراره؟ ثم اختم بعمل محدد للغد. لا تعد حساب الموقف عشرات المرات بعد أن تبين واجبك؛ اجعل التفكير خادماً للإصلاح،

واستعن بمن يحسن مساعدتك إذا صار التفتيش في النفس قلقاً يعطلك.

الفصل ١٣٣ — النية والافتقار إلى الله

في كل محاولة إصلاح سؤال سابق على الخطوة: لمن أريد أن أحسن خلقي؟ رضا الناس قد يكون ثمرة طيبة، لكنه لا يصلح أن يكون وحده غاية القلب. نغیر أذواقهم، وقد يطلبون منا باطلاً، وقد لا يشكرون حقاً أديناه. أما طلب مرضاة الله فيثبت للإنسان معنى عمله حين يغيب الشناء.

وسبق معنا من كلام ابن حزم أن النصيحة لا تبذل على شرط القبول، وهو معنى يمتد إلى مراجعة حظ النفس في سائر الإحسان.^[١٦٦] قد يسهل علينا العمل أولاً ثم تظهر نيتنا عند غياب الشكر أو مخالفة الرأي؛ فنحتاج حينئذ إلى تجديد الإخلاص. وليس كل سرور بثناء علامة رياء، ولا كل ألم من جفاء دليل فساد العمل. وإنما نسأل عما نحمله ذلك عليه: هل نمنّ، أو نمنع حقاً، أو نندم لأن الناس لم يروا؟ تصحيح النية يعيد العمل إلى غايته دون اتهام مرهق لكل شعور.

ولا تكون النية الصالحة كلاماً نستحضره أول الطريق ثم يغيب أثره. نجددها قبل موقف نعرف أنه يثير الغضب، وعند خدمة لا يرانا فيها أحد، وبعد نجاح يميل بالقلب إلى الإعجاب. نسأل الله أن

يعيننا على حقه وحقوق خلقه، ونذكر أن القدرة على الكف
والبذل نعمة لا نملكها استقلالاً.

ومن دعائه ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من
زكاها، أنت وليها ومولاها». ^[١٦٧]. يجمع الدعاء طلب التقوى
والتزكية والاعتراف بأن الله ولي النفس ومولاها. فمن رددته
فليفتح له موضعاً في عمله: يترك سبباً يعرف أنه يفسده، ويطلب
علماً يرشده، ويصحب من يعينه على الخير.

إذا لاحظت أنك تلين لمن ينفك وتشتد على من لا تخشى لومه،
فلا تكتف بتعديل المظهر. اسأل الله صلاح القصد، وتعمد أداء
حق من لا تنتظر منه منفعة. وإذا شكرك الناس، فاقبل شكرهم
بأدب من غير تصنع، واحمد الله، ولا تجعل الشكر شرطاً لاستمرار
إحسانك. إن الافتقار إلى الله يريح النفس من مطالبة الخلق بأن
يحملوا ثمن كل عمل صالح.

الفصل ١٣٤ — اهدي لأحسن الأخلاق

من دعاء النبي ﷺ في افتتاح الصلاة: «واهدي لأحسن الأخلاق
لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني
سيئها إلا أنت». ^[١٦٨]. ومن هذا الدعاء جاء عنوان هذه الرحلة؛
فغاية الساعي أن يسأل أحسن الأخلاق، مع علمه أنه محتاج إلى
هداية ربه في معرفتها والعمل بها والثبات عليها.

«اهدني» دعاء عبد لا يستغني بعلمه عن التوفيق. قد يعرف الرفق ثم لا يوفق إليه عند الغضب، ويعرف الصدق ثم يضعف حين يخاف خسارة. ولذلك لا يكفي جمع المعلومات عن الفضائل. نسأل الهداية التي يصحبها قبول الحق وإرادته وسلوك طريقه، ونعمل بما علمنا رجاء أن يزداد الخير في نفوسنا.

وفي «أحسن الأخلاق» همة لا تقف عند ترك الفظائع. من خير أن يكف الإنسان عن السب، ثم يطلب فوق ذلك حسن الإنصات، وصدق الاعتذار، والبدء بالإحسان، والعدل في موطن يستطيع فيه أن يحابي نفسه. لا يقارن تقصيره دائماً بمن هو أشد منه تقصيراً ليطمئن، بل ينظر إلى هدي النبي ﷺ ليعرف سعة ما يحتاج إلى تعلمه.

ثم يسأل صرف السيئ، لأن القلب يحتاج إلى إزالة ما يفسده كما يحتاج إلى اكتساب الخير. يمكن أن يربط القارئ دعاءه بعيب يعرفه من غير أن يحصر معنى الدعاء فيه: يتذكر غيبة اعتادها، أو غضباً يؤدي به أهله، أو وعداً يتساهل فيه، ثم يطلب العون على ترك سببه وإصلاح أثره. يردد اللفظ المأثور بتدبر، وله أن يدعو خارجه بما يحتاج إليه من دعاء صحيح المعنى، من غير أن ينسب عباراته إلى السنة.

لا نرتب على الدعاء نتيجة زمنية لم يدل عليها النص، ولا نجعل كثرة ترديده بديلاً عن التوبة. ندعو ونرجو ونحسن الظن بالله، ونخطو في العمل. وإذا زللنا لم يكن الدعاء كاذباً ما دمتنا صادقين في الطلب والرجوع؛ الافتقار باق، وربنا واسع الرحمة.

الفصل ١٣٥ — اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم أحسنت خلقي، فأحسن خلقي». [١٦٩].

التمييز بين الخلق والخلق يعين على التدبر: الأول يتعلق بالهيئة التي خلق الله الإنسان عليها، والثاني بصفاته في تعامله وقصده وسلوكه. يقابل العبد نعمة الخلق بطلب صلاح الخلق، فلا تشغله العناية بالمظهر عن اللسان والقلب واليد. قد يتهيأ للقاء الناس في ثوبه ويمضي إليه بنية خصومة؛ فيذكره الدعاء بما هو أولى بالعناية.

ولا نحتاج أن نجعل هذا الدعاء متعلقاً بموقف مخصوص لم نثبت تخصيصه. هو من الدعاء بحسن الخلق، يقوله المسلم راجياً ربه. لا نربطه بمرآة أو عدد أو نتيجة، ولا نحول ترديده إلى وسيلة للحكم على هيئة الإنسان أو قيمة جسده. كرامة العبد لا تقاس بموافقة لمقاييس جمال يصنعها الناس، وفضل حسن الخلق باب مفتوح على اختلاف صورهم وأحوالهم.

ومن ثمرة المعنى أن يجمع المرء استعدادين قبل لقاء مهم: يستعد بما يناسبه من نظافة وهيئة، ويستعد بصدق وإنصاف وحسن استماع. وقبل العودة إلى بيته يسأل الله خلقاً يطمئن به أهله، لا صورة يمدحه بها الغرباء وحدهم. اللهم كما أنعمت علينا بنعم لا نحصيها، فأعنا على شكرها، وأصلح قلوبنا وأقوالنا وأعمالنا.

الفصل ١٣٦ — التوبة ورد المظالم والاعتذار

قال النبي ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم». ^[١٧٠]. يدعونا الحديث إلى المبادرة قبل يوم لا تنفع فيه وسائل التعويض الدنيوية. التوبة ليست شعوراً جميلاً بالأسف يترك صاحب الحق ينتظر، بل ندم وإقلاع وعزم، ورد للحقوق أو تحلل منها على الوجه المشروع.

إذا كان الحق مالاً، بحثنا عن صاحبه وأدينا ما وجب. وإذا كان خبراً كاذباً نشرناه، صحناه عند من وصل إليه بقدر الاستطاعة. وإذا كان أذى باللسان أو اليد، وقفناه وطلبنا إصلاح أثره. وفي الوقائع الملتبسة أو المتعذرة يسأل أهل العلم عن طريق الإبراء؛ لا نخترع تصرفاً يريحنا ونظن أنه أسقط الحق حتماً.

والاعتذار الصادق محدد: فعلت كذا، وهو خطأ، وأفهم أنه سبب لك كذا مما تبين لي، وسأصلح الأمر بالطريق الآتي. لا يسبق الاعتذار استجواب للمظلوم ليثبت أنه يستحقه، ولا ينتهي بعبارة

تلومه على حساسيته. يمكن أن نبين بعد ذلك خطأ آخر وقع منه، لكن خلط الخطأين في لحظة الاعتذار قد يجعله دفاعاً مقنعاً.

ولصاحب الحق أن يحتاج إلى وقت، وقد لا تعود الثقة بمجرد الكلام. ليس لنا أن نطالبه بنسيان ما وقع كي نثبت لأنفسنا أننا تبنا. نلتزم الصدق ونقبل ما يقتضيه الحق من حدود معقولة، وندعو له بخير. وإذا تعذر التواصل أو خيف من طريق معين ضرر، طلبنا طريقاً أميناً آخر يراعي الحقوق والسلامة. شرف التوبة في صدق الرجوع، لا في سرعة حصولنا على عفو الناس.

الفصل ١٣٧ — المراقبة قبل الموقف وبعده

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. استحضار اطلاع الله وكتابة القول يعين على الوقفة التي تسبق الكلمة. لا نحتاج أن ننتظر شدة الخصومة لنبداً المراقبة؛ نستعد إذا عرفنا أن لقاءً قادمًا يثير فينا ضعفًا متكررًا.

قبل الموقف نحدد المقصد المشروع والحد الذي لا نتجاوزه. في نقاش مال مثلاً يكون المقصد بيان الحق وطريق أدائه، والحد ترك السب والتهديد والكذب. وأثناء الموقف نلاحظ هل بقينا في المسألة أم انتقلنا إلى تجريح الشخص. إذا خرجنا عنها أعدنا الحديث، أو توقفنا توقفًا مسؤولاً إلى وقت أنسب.

وبعده نراجع ما وقع من غير تزيين ولا اجتراح طويل. ما الذي أعان على الرفق؟ أين تغير صوتنا؟ هل تركنا حقاً لم نؤده؟ وهل فهم الآخر ما أردنا؟ ثم نختار إصلاحاً واحداً. قد يكون إرسال بيان مختصر، أو اعتذاراً، أو ترتيب معلومة أغفلناها. لا نجعل المحاسبة محكمة نعاقب فيها أنفسنا إلى غير نهاية، ولا نجعل النجاح في جزء يمحو خطأ الجزء الآخر.

ومن المفيد أن نفصل بين نيتنا والأثر الذي وقع. قد لا نقصد الإهانة، لكن عبارة منا جرحت، فغيرها ونعتذر عن الأذى. وقد يقصد الآخر إحراجنا ولا يصيبنا من فعله إلا ضيق يسير، فلا يبيح ذلك ظلماً مقابلاً. مراقبة الله تبقي السؤال عن الواجب حاضراً، وتمنع أن يصبح تقديرنا الشخصي وحده ميزان الحقوق.

الفصل ١٣٨ — إبطاء الاستجابة عند الغضب

رأى النبي ﷺ رجلاً قد اشتد غضبه، فقال إنه يعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». [١٧١]. نستعيد بالله كما علمنا، ونأخذ بالأسباب التي تمنع العدوان. ليس المطلوب أن ننتظر زوال كل شعور قبل أن نكف اليد واللسان؛ الكف واجب حاضر.

من التدابير العملية أن نتوقف عن الكلام قليلاً، ونضع ما في أيدينا إن كنا نخشى العبث به، ونتنحى إلى مكان آمن إذا احتاج

الموقف. هذه تدابير لتنظيم السلوك، ولا ننسب لكل واحدة فضيلة مخصوصة في السنة. وإذا كان علينا حق عاجل، لا نجعل التوقف طريقة للتهرب منه؛ نوضح أننا سنعود إلى البيان في وقت مناسب ونفي بما قلنا.

ومما يعين أن نكتب جملة نستعملها عند بداية الانفعال: أريد أن أتكلم دون إساءة، وسأهدأ ثم نكمل. لا ننتظر أن نخترع العبارة في أشد اللحظات. وإذا كان المكان يتضمن خطراً على أحد، فالأولوية للحماية وطلب المساعدة، لا لإكمال نقاش الخلق مع شخص في حال عدوان.

بعد الهدوء نعالج الواقعة والسبب المتكرر. لا تكفي مهلة تكرر بعدها الإساءة نفسها بلا تغيير. قد يحتاج الأمر إلى توزيع أعدل للمسؤوليات، أو تقليل إجهاد يمكن تقليله، أو تعلم مهارة حوار، أو متابعة مختصة. وفي كل ذلك لا نحمل من أذنيه مسؤولية ضبطنا لأنفسنا؛ له أن يحسن سلوكه، ولنا واجب مستقل أن نترك التعدي.

الفصل ١٣٩ — تدريب اللسان على البديل الحسن

ترك العبارة المؤذية يحتاج أحياناً إلى تعلم عبارة تؤدي المعنى المشروع مكانها. من اعتاد أن يقول لابنه: أنت لا تفهم، يمكنه أن يقول: يبدو أن التعليمات لم تتضح، فلنراجعها. ومن اعتاد أن يتهم

زميله بالإهمال، يمكنه أن يصف العمل المتأخر ويسأل عن سببه وما يحتاج إليه إنجازه. لا نخفي المشكلة، بل نعطيها لغة تعين على حلها.

ابدأ بثلاث عادات: السؤال بدل افتراض النية، ووصف الفعل بدل الحكم على الشخصية، وطلب محدد بدل لوم مفتوح. عندئذ يكون الحوار قابلاً للجواب: ماذا تقترح؟ وما الوقت الذي تستطيع الالتزام به؟ أما «أنت دائماً هكذا» فتغلق الباب بحكم يشمل الماضي والمستقبل، وتدفع الآخر إلى الدفاع بدل الإصلاح.

ويحتاج التدريب إلى صدق، فلا نستعمل لغة هادئة لإيصال احتقار مستتر. نترك السخرية في النبوة والغمز، ونسمع الجواب، ونقبل ما يبين نقص فهمنا. وإذا لم نكن قادرين على الإنصات الآن، نطلب تأجيلاً قصيراً مناسباً بدل تمثيل الاستماع ونحن نعد الرد.

في آخر اليوم تذكر عبارة واحدة تمنيت لو قلتها بطريقة أحسن، واكتب بديلاً من كلماتك المعتادة. ثم استعمله عند أول فرصة. ليس المقصود حفظ حوار جامد، بل توسيع قدرة اللسان على الصدق والرفق معاً. وبعد أيام انظر هل أصبح من حولك أقدر على السؤال والتوضيح؛ فنجاح التدريب يظهر في أمان العلاقة، لا في إعجابنا بجمال عباراتنا وحده.

الفصل ١٤٠ — التخلق بالفعل حتى يألفه الإنسان

من الكلمات الجامعة في السنة: «وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله، وإن قل». [١٧٢]. وفي دوام العمل تربية لا تحصل بالحماس العارض وحده. يعتاد الإنسان أن يسلم، وأن يسأل قبل الحكم، وأن يؤدي ما وعد به، وأن يراجع ذمته، فيجد لهذه الأفعال موضعاً ثابتاً في يومه.

ويقرر الغزالي في حديثه عن الرياضة أن للأعمال المتكررة أثراً في ترسيخ الهيئات، كما أن الهيئة تدعو إلى تكرار العمل. [١٧٣]. نستفيد من هذا المعنى في اختيار فعل مشروع صغير يتكرر في الموضع الذي نضعف فيه؛ لا في ابتداء مشقة لذاتها أو إهدار حق بدعوى كسر النفس. فمن عيبه البخل يجاهد بأداء الواجب ثم ببذل يقدر عليه، ومن عيبه الحدة يتعلم إنصافاً وجواباً منضبطاً. أما عدد الأيام وطريقة التدوين فوسائل تنظيمية مقترحة، لا وعود شرعية بتغير الطبع خلال مدة معينة.

وليس بدء الفعل مع مشقة نوعاً من النفاق. قد يكف المرء كلمة جارحة وقلبه بعد متألم، ويؤدي حقاً ولا يجد لذة البذل التي يرجوها. ما دام يريد طاعة الله ويجاهد ما في نفسه، فهو يسعى إلى موافقة الباطن للظاهر. المذموم أن يصنع صورة حسنة ليستر إصراراً على الظلم أو ليطلب بها ما لا يحل.

اختر فعلاً قليلاً مرتبطاً بموقف يتكرر. عند وصول رسالة خلاف، اقرأها كاملة قبل الرد. عند انتهاء استعارة، أعد الشيء إلى صاحبه. عند دخول البيت، ابدأ بما يليق من سلام واهتمام. ليس الربط بالموقف سنة مخصوصة؛ هو وسيلة تذكر تعين على العمل. ويمكن تعديلها إذا لم تناسب حالك.

ولا تجعل العدّ غاية. قد تسجل عشر مرات من الإنصات، ثم تقاطع من احتاج إليك في الموطن الأهم. راقب المعنى والأثر مع التكرار، واسأل من حولك عن تحسن محدد دون إلزامهم بمدحك. وإذا رسخ فعل، حافظ عليه وأضف غيره بقدر الاستطاعة. التدرج يعين على الثبات، لكنه لا يؤجل ترك محرم أو رد حق واجب حاضر.

الفصل ١٤١ — الصحبة والبيئة والقدوة

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. البيئة التي يأنس فيها الإنسان بالصدق والذكر واحترام الناس تعينه على ما يريد. وكذلك قد تجعل بيئة أخرى السخرية والغيبة والمنافسة في المظاهر حديثاً معتاداً يصعب الخروج منه إن لم ينتبه.

ومن الطرق التي يذكرها الغزالي لمعرفة العيب طلب التنبيه من صديق صادق بصير. ^[١٧٤] فليست الصحبة النافعة هي التي تكثر

مديحك، ولا التي تجعل صحبتها حقاً في التحكم بك؛ بل التي تعينك على رؤية ما لم تره، وتحفظ لك كرامتك وأنت تتعلم. يمكن أن تنفق مع شخص أمين على أن ينبهك إلى مقاطعة تتكرر أو وعد تنساه، بكلمة بينكما، دون أن تحول العلاقة إلى تفتيش دائم. وإذا سمعت منه حقاً فاشكره، وإن أخطأ فناقشه بأدب؛ فالنصيحة لا تمنح صاحبها العصمة.

ليس اختيار الصحبة إذناً بازدراء الناس أو قطع حقوق الأرحام. يمكن أن يحفظ المرء حق قريبه، ويقلل مشاركته في مجلس يتكرر فيه الأذى، ويغير الموضوع، وينصرف بأدب عند الحاجة. ومن لم يملك تغيير بيئة العمل كلها، يستطيع أن يضبط مشاركته ويطلب صحبة صالحة خارجها، وأن يكون هو سبباً في كلمة عادلة ومجلس أنفع.

وفي اختيار القدوة ننظر إلى المعاملة المستمرة، لا إلى بلاغة الكلام وحدها. من أحسن الرجوع عن خطئه، وحفظ حق الضعيف، وأدى أمانته، علمنا بفعله ما لا تعلمنا إياه صورة مصنوعة. ومع ذلك لا نجعل أحداً بعد النبي ﷺ معصوماً؛ نأخذ الخير وندع الخطأ، ولا نهدم الفضيلة لأن من أحببناه قصر فيها يوماً.

راجع أيضاً ما تصحبه من محتوى كل يوم. هل يعود بك إلى احتقار الناس، أم يزيدك علماً وعدلاً ورحمة؟ إن تقليل مصدر

متكرر للغبية والغيظ قرار عملي يعين اللسان والقلب. ثم املاً بعض الوقت بصحبة أو قراءة نافعة، حتى لا يكون ترك القديم فراغاً تعود إليه العادة سريعاً.

الفصل ١٤٢ — العباداة ومداواة الكبر والشح والشهوة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. نقيم الصلاة كما أمر الله، ونرجو أثرها في قلوبنا وأعمالنا. إذا رأينا تناقضاً بين عبادة تؤديها وظلم نصر عليه، لم نجعل ذلك سبباً لترك العباداة، بل دعوة إلى إحسانها والتوبة من الظلم.

السجود يذكركنا بعبوديتنا، فلا يليق أن نخرج منه إلى استعلاء على من دوننا في مال أو مكانة. والزكاة والصدقة نتصلان بمجاهدة التعلق بالمال. والصيام يدرّب على إمساك مأمور به، مع حفظ اللسان والجوارح. ولكننا لا نحول هذه العبادات إلى مجرد تمارين سلوكية؛ نعبد الله بها امتثالاً واحتساباً، ومن ثمراتها صلاح الخلق. ومن الآفات أن يجعل الإنسان ما فتح له من نافلة عذراً لتضييع حق. قد يطيل في عمل تطوع وهو يؤخر واجباً لأهله أو عملاً تعاقد عليه. تحتاج المراتب إلى علم، فليس كل ما يختاره المرء لميل نفسه أولى مما لزمه. العباداة الصادقة تعين على الوفاء، لا على الهروب من تبعاته.

بعد صلاة اليوم، اختر حقاً تعرفه فأده، أو معصية لسان فدعها. واجعل دعاءك بالهداية حاضراً عند موطن الحاجة. وإذا لم تر أثراً سريعاً، فلا تستعجل ولا تغتر؛ راجع ما يصلح من حضور القلب والعلم والعمل، واستمر في سؤال الله القبول. نحن محتاجون إلى رحمته في أصل الطاعة وفي ثمرتها.

الفصل ١٤٣ — الصيام وضبط الاندفاع

قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». [١٧٥]. في الحديث زجر للصائم عن انفصال إمساكه عن أخلاقه. لا يترك الصوم لأنه وقع في خطأ، بل يتوب ويتم عبادته على الوجه المشروع، ويعلم أن الجوع ليس حجة للكذب والعدوان.

يتعلم الصائم أن الرغبة لا يلزم أن يتبعها فعل فوراً، يمسك عن مباح في وقت معلوم امتثالاً لله. ومن التدبر أن ينظر إلى رغبات أخرى تحتاج إلى كف: حب الرد، أو فضول النظر، أو طلب الغلبة. لا نقيس الأحكام الشرعية بعضها على بعض بلا علم، لكننا ننتفع في تربية النفس بمعنى الطاعة وتقديم أمر الله على هوى عاجل.

والجوع المقصود هنا ما يتبع صوماً مشروعاً لمن يقدر عليه، وليس تجويع النفس عقوبة، أو حرمانها من حاجتها خارج هدي الشرع.

لا نجعل إيذاء البدن علامة صدق، ولا نحدد حرماناً غذائياً وسيلة عامة لعلاج الأخلاق. من له عذر أو حالة صحية يرجع في حكمه إلى أهل العلم، وفي سلامة الصوم وتدبير علاجه إلى الطبيب المختص.

إذا صمت، فاختر مع حفظ فرائض الصوم موقفاً يكثر فيه زلل لسانك، واستعد له. وإذا أفطرت، فلا تجعل نهاية الإمساك نهاية المراقبة. ومن لم يستطع صوم تطوع، فباب المجاهدة واسع: كف أذى، وصدق، وخدمة، ودعاء. لا يضيق طريق تهذيب النفس بفوات عمل لم يكلفه الله به على حاله.

الفصل ١٤٤ — الصدقة ومجاهدة الشح

تفتح الصدقة موضعاً عملياً يرى فيه الإنسان ما في قلبه من تعلق وخوف. يعلم أن المال رزق، ثم يجد عند إخراج جزء منه تردداً لم يجده عند نفقة غير لازمة لنفسه. لا يكفي أن يلوم نفسه؛ ينظر في الواجبات والقدرة، ثم يختار بذلاً مشروعاً يستطيع القيام به.

ابدأ بالزكاة الواجبة إن وجبت، وبالديون والنفقات التي تلزمك. ثم اجعل للتطوع نصيباً يناسب حالك. لا يلزم أن يعرف أحد مقدار تدريبك، ولا أن تكون الصدقة كبيرة حتى تربى النفس. وقد يختار المرء مبلغاً قليلاً مستمراً، أو نفقة يحتاجها قريب، أو إعانة محددة، بحسب ما يتيسر وما هو أولى.

وعند العطاء تدرب على ترك المنّ. لا تربط المساعدة بأن يوافقك صاحبها في كل رأي، ولا تذكر حاجته للناس، ولا تسأله عن تفاصيل لا تتوقف عليها أمانة المصرف. إذا احتجت إلى التحقق فليكن بقدر مناسب يحفظ الكرامة، ولا تجعل الثقة غفلة عن حق مال استؤمنت على توزيعه.

ثم حاسب قلبك بعد الصدقة: هل بقي ينتظر الشكر؟ هل تألم لأن أحداً لم يلتفت؟ رده إلى طلب القبول، واذكر أن الله غني عنا وأنا المنتفعون بطاعته. وإذا ضاقت القدرة على المال، فقدم من وقت أو خدمة ما تستطيع، من غير أن تدعي أن هذا يسقط واجباً مالياً ثبت عليك.

الفصل ١٤٥ — الخدمة ومجاهدة الأثرة

سئلت عائشة رضي الله عنها عما كان النبي ﷺ يصنع في بيته، فقالت: «كان يكون في مهنة أهله»، فإذا حضرت الصلاة خرج إليها.^[١٧٦] في هذا الخبر قرب من حاجات البيت، وقيام بخدمة لا ينقص بها مقام صاحبها. نحتاج أن نتذكره حين نظن أن العمل الخفي أقل من أن نقوم به.

تبدأ الخدمة بالسؤال عما يحتاج إليه الآخر فعلاً. قد ننشغل بما يسهل علينا ثم نترك عنه الحمل الأثقل، أو نفعل شيئاً لم يطلبه ثم نتنظر شكراً يثبت أننا نفعناه. الاستماع إلى الحاجة وتعلم إتمام العمل

جزء من الإحسان. ومن يحمل مهمة، فليعرف بدايتها ونهايتها حتى لا يرد نصف عبئها إلى من أراد إعانتة.

ومن آفات الخدمة تحويلها إلى سلطة. يقول المرء: خدمتكم، ثم يرى أن له حق التحكم في قرارات الجميع. فضل البذل لا يسقط حقوقهم في الاختيار، ولا يبيح كشف أسرار عرفها خلال المساعدة. وكذلك لا تكلف النفس ما لا تطيق ثم تتخذ التعب عذراً لإهانة من تخدمهم؛ تنظم العمل وتطلب المشاركة والراحة المشروعة.

اختر مهمة ثابتة في بيتك أو محيطك تستطيع أداءها دون انتظار تذكير في كل مرة. تعلمها وأتمها، ولا تعلن كل خطوة. ثم انتبه إلى قلبك حين لا يلاحظ أحد غياب العبء الذي رفعته؛ هذا موضع احتساب. وقد يكون خير ما تكسبه أن يشعر من حولك بأن المسؤولية مشتركة، وأن حاجتهم لا تجعلهم مدينين لك في كرامتهم.

الفصل ١٤٦ — قبول النقد والرجوع عن الخطأ

قد يطلب الإنسان النصيحة صادقاً، ثم يضيق بها حين تأتي في موضع يعتز به. قبولها يحتاج إلى مهلة تسمع فيها النفس ما قيل قبل أن تدافع. وليس واجباً أن توافق على كل نقد؛ المطلوب أن تنظر

في صحته بميزان العدل، وأن تشكر على ما نفع، وأن ترد غير الصحيح بأدب ودليل.

والانتفاع بما يقوله المخالف عن عيوبنا من المعاني التي يذكرها الغزالي في معرفة النفس.^[١٧٧] وليس معناه تصديق كل خصومة؛ فالخصم قد يظلم ويبالغ. إنما نميز داخل كلامه ما يمكن التحقق منه: واقعة أهملناها، أو عبارة صدرت منا، أو حقاً تأخر. نصح هذا القدر ولو أساء ناقله، ولا نقبل ما زاد عليه من افتراء. وبذلك لا تصبح قسوة الأسلوب حجة لرد الحق كله، ولا صحة بعض النقد حجة لتسويغ الإهانة كلها.

افصل بين ثلاثة أمور: مضمون الملاحظة، وطريقة صاحبها، ودافعه الذي قد لا تعلمه. قد يسيء العبارة ويصيب في بعض المضمون. تستطيع أن تقول إن الأسلوب آذاك، وأن تصلح الخطأ في الوقت نفسه. لا تجعل سوء طريقته إعفاء من واجب ظهر لك، ولا تجعل إصابته في جزء إذناً له بإهانتك.

ومن تمام الرجوع أن يصل إلى موضع الخطأ. إذا أعلنت رأياً ثم ظهر بطلانه، فبيان الرجوع لمن سمعه أداء لأمانة العلم. وإذا كان قرارك قد أضر بعامل أو قريب، فتصححه في السجل والعمل أصدق من ندم لا يعرفه المتضرر. ولا يلزم أن تعاقب نفسك بكلمات قاسية؛ يكفي صدق الاعتراف وإصلاح ما تستطيع.

اسأل شخصاً أميناً عن سلوك واحد تريد إصلاحه، وحدد له أنك تحتاج إلى مثال لا إلى حكم شامل عليك. دون ما فهمت، ثم راجعه بعد مدة لترى هل تغير الفعل. ولا تجعل الناصح مسؤولاً عن مراقبتك طوال الوقت؛ هويعين، وأنت تحمل واجب المجاهدة. ومن أجمل آثار النقد أن يخرج منه الطرفان بثقة أكثر في إمكان قول الحق دون خصومة.

الفصل ١٤٧ — الانتكاسات والعودة إلى الطريق

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. باب الرجاء يدعو إلى التوبة، ولا يدعو إلى تأجيلها. إذا عاد المرء إلى غضب أو غيبة بعد أيام أحسن فيها، فقد وقعت منه زلة تحتاج إلى إصلاح، ولم تصبح الأيام السابقة حجة لليأس أو للأمن من تبعة الحاضر.

قد تجر الزلة خطأً ثانياً هو إعلان الهزيمة: لن أغير. هذه عبارة تتجاوز ما نعلم، وتغلق عملاً ممكناً الآن. الأفضل أن نسأل: ما الذي سبق الزلة؟ هل دخلت الموقف متعباً بلا استعداد؟ هل أهملت قاعدة كانت تعينني؟ هل أحتاج إلى مساعدة أوسع؟ لا نبحث عن عذر يبطل المسؤولية، بل عن سبب يمكن تغييره.

ابدأ بالإصلاح القريب قبل إعادة الخطة كلها. اعتذر، ورد الحق، واقطع امتداد الخبر أو الأذى. ثم عد إلى فعل صغير كنت تقدر

عليه، وخفف التكاليف التطوعية التي حملتها نفسك فوق الاستطاعة. أما الواجب فلا يسقط لأنه ثقیل؛ اطلب العون على أدائه بالطريق الممكن المشروع.

ولا تقارن يوم التعثر بأجمل صورة تتخيلها للناس. لكل نفس موضع مجاهدة لا تراه. قارن فعلك بالدليل وبما علمت من الحق، واشكر الله على كل رجوع وفقك إليه. الاستمرار ليس تاريخاً يخلو من زلة، بل صدق في التوبة والعمل وعدم اتخاذ التقصير هوية لا نفارقها.

الفصل ١٤٨ — كظم المشاعر أم ضبط السلوك؟

لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ دمعت عيناه، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا». [١٧٨]. هذا بيان يجمع الحزن والعبودية. لا يحتاج المؤمن أن ينفي ألمه ليكون صابراً، وإنما يحفظ قوله وعمله مما لا يرضي الله.

ويعيننا تفريق الغزالي بين إزالة الغضب وبين تهذيبه على ترك المطالبة المستحيلة بأن نصير بلا انفعال. [١٧٩]. يشتد الحزن أو الخوف أو الغضب أحياناً، ويحتاج صاحبه إلى عون مناسب؛ ولا يصح تحويل كل معاناة إلى اتهام في الدين أو الخلق. المقصود هنا ما نملكه من الفعل: أن نطلب المساعدة، ونقلل أسباب الأذى، ونحفظ الحقوق بقدر استطاعتنا. ولا يغني الحديث التربوي عن

رعاية مختصة عند الحاجة، كما لا تعفي الحاجة إلى الرعاية من بذل الأسباب الممكنة لحماية النفس والآخرين.

وحين ندعو إلى كظم الغيظ، لا نقصد ادعاء أن شيئاً لم يحدث، أو منع المظلوم من بيان ألمه وطلب حقه. يستطيع أن يقول: تأذيت مما قيل، وأحتاج إلى أن تتفق على ألا يتكرر. ويستطيع أن يطلب وقتاً وراحة ومعونة. الذي يجاهد نفسه عليه هو أن لا يحول الغضب إلى عدوان، أو الألم إلى اتهام بغير بينة.

ومن أدب الأسرة أن تتيح لغة للمشاعر بلا سخرية، مع بقاء الحدود للسلوك. يسمع الأب خوف ابنه، ويسمع الزوج ضيق زوجته، ثم يبحثان عما يحتاج إلى إصلاح. الاعتراف بالشعور لا يثبت صحة كل تفسير صاحبه، ولا يوجب قبول كل طلب نتج عنه؛ لكنه يفتح باب الفهم بدل أن يبقى الحديث إنكاراً متبادلاً.

إذا استمر الألم أو تعطل به عيش الإنسان، فالكلام مع أمين أو مختص قد يعينه على فهم ما يمر به. لا نكتفي بقول: اكظم غيظك، إذا كانت هناك إساءة مستمرة تحتاج إلى وقف. حسن الخلق مسؤولية تشمل من يتألم ومن آذاه، وكل منهما له حق وعليه واجب.

الفصل ١٤٩ — متى نطلب استشارة أسرية أو نفسية؟

ليس طلب المساعدة حكماً على ضعف الإيمان. قد يعرف الإنسان وجوب كف الأذى، ثم يحتاج إلى تعلم مهارات أو علاج مشكلة تسهم في تكراره. ويستفتي العالم في الحكم الشرعي، ويستعين بالمختص المؤهل في مجال اختصاصه؛ فلا يحمل أحدهما ما لا يحسنه الآخر.

إذا تكرر الغضب المؤذي، أو صار السلوك عنيفاً، أو لم تنفع محاولات المساعدة الذاتية، فراجعة طيب أو مختص نفسي خطوة مناسبة. وعند خطر وشيك على النفس أو الآخرين تطلب المساعدة العاجلة من خدمات الطوارئ المحلية، مع الابتعاد عن موضع الخطر إن أمكن بأمان. هذه الحاجة مقدمة على إكمال جلسة نصح أو تمرين.

وفي انخلاف الأسري يختار الطرفان مستشاراً مؤهلاً أميناً متى أمكن. وإذا وجدت إساءة أو تهديد، فلتكن حماية المتضرر وتقييم الأمان أولاً؛ لا يفترض أن جمع الطرفين في جلسة عتاب هو الحل المناسب لكل حال. وليس للقريب أن يضغط على المتضرر ليكشف ما لا يأمن كشفه أو ليقبل علاقة تستمر فيها الإساءة باسم الصفح.

والعلاج لا يعني المعتدي من مسؤوليته، كما أن وجود مشكلة نفسية لا يعني أن صاحبها مؤذ. نبتعد عن التشخيص بالألقاب الشائعة، ونعرض الوقائع على المختص، ونحفظ الخصوصية. وحين نرافق من يطلب العون ندعو له ونشجعه على الانتظام فيما اتفق عليه مع أهل الاختصاص، من غير أن نستبدل توصياتهم بنصائح عارضة أو نغير علاجاً موصوفاً من تلقاء أنفسنا.

الفصل ١٥٠ — برنامج الأربعين يوماً

هذه الأربعون مدة مقترحة لتنظيم المحاولة ومراجعتها. لا نثبت لهذا العدد في اكتساب الأخلاق فضلاً شرعياً مخصوصاً، ولا نعد القارئ بأن تتكون له في نهايته عادة كاملة أو تزول عنه كل آفة. له أن يمدد التدريب أو يعيد بعضه بحسب حاجته، مع بقاء الفرائض والحقوق مقدمة على جميع التمارين. وإذا فات يوم فلا كفارة ولا إعادة شرعية للعدد؛ يستأنف السعي ولا يجعل التعثر سبباً للانقطاع.

اختر خلقاً محورياً يكثر احتياجك إليه، كالرفق أو الصدق أو الوفاء، واجعله حاضراً طوال المدة. بقية الأعمال توسع نظرنا إلى ما يعينه. وفي أول يومك ادع الله بما تيسر من الدعاء المأثور، دون عدد نلزمك به، وحدد عمل اليوم. وفي آخره اكتب سطوراً عن الواقعة وسطوراً عن الإصلاح. لا تجعل السجل موضع كشف

أسرار الناس، ولا وسيلة تمنح بها نفسك درجات في الإيمان. إنه تذكير يعينك على ملاحظة الفعل.

الأيام ١-٧: معرفة النفس وتهيئة البداية

اليوم الأول: تعيين الخلق المحوري

اقرأ الفصل الذي يعالج أكثر ما يتكرر عليك من عيب، ثم اختر فعلاً محدداً تريد تغييره. لا تكتب أنك تريد أن تصبح شخصاً كاملاً؛ اكتب مثلاً أنك تريد ترك المقاطعة. استحضر موقفين تقع فيهما، وادع الله بالهداية. في المساء سجل ما لاحظته دون إصدار حكم شامل على نفسك.

اليوم الثاني: الإنصات إلى شاهد أمين

اسأل شخصاً تثق بأمانته عن مثال واحد على السلوك الذي اخترته. أخبره أنك تريد الفهم، ثم اسمع حتى يتم. لا تطلب منه أن يسرد كل عيوبك أو أن يراقبك دائماً. اكتب ما صح من ملاحظته، وما يحتاج إلى توضيح، واشكره على الوقت الذي أعانك به.

اليوم الثالث: معرفة المقدمات

لاحظ ما يسبق السلوك المؤذي: استعجال، أو تعب، أو شعور بأنك لم تفهم، أو مجلس يتكرر فيه الاستفزاز. اختر سبباً تستطيع

تنظيمه، كترك نقاش غير عاجل إلى وقت أهدأ. في المساء اسأل هل تغير الفعل حين تغيرت المقدمة، مع تذكر أن بقاء السبب لا يبيح العدوان.

اليوم الرابع: دعاء بتدبر

اقرأ دعاء «واهدني لأحسن الأخلاق» في الفصل الرابع والثلاثين بعد المئة، وردده متدبراً معناه. اختر خلقاً تسأل الله إياه، وآفة تسأله صرفها، ثم قم بعمل يناسب طلبك. لا تجعل العمل اختباراً لاستجابة الدعاء؛ أنت تعبه بالدعاء والطاعة وترجو فضله في الحالين.

اليوم الخامس: مراجعة الذمة

دون حقوقاً معلومة تأخرت عليك: مالاً، أو مستعاراً، أو وعداً، أو تصحيح خبر. ابدأ بواحد تستطيع أدائه اليوم. إن احتاج إلى مدة، أخبر صاحبه بحالك بصدق واتفق معه على طريق ممكن. لا تجعل وضع القائمة إنجازاً يغني عن الرد، ولا تعد بموعد تعلم أنك لن تبلغه.

اليوم السادس: حسنة في الخفاء

اعمل خيراً يسيراً لا يحتاج إلى إعلان، واحفظ خصوصية من يتصل به. قد يكون دعاء، أو تنظيف أذى، أو خدمة منزلية. راقب رغبتك في أن يعرف الناس، وردها إلى طلب القبول. إن عرفوا العمل من غير قصدك، فلا تتكلف إنكاره؛ احمد الله واستمر في الخير.

اليوم السابع: المراجعة الأولى

راجع الوقائع الست السابقة. اختر فعلاً واحداً ظهر تحسنه، وفعلاً ما زال يحتاج إلى عناية. اكتب السبب المحتمل وخطوة الأسبوع القادم. لا تعط نفسك وصف الصلاح المطلق ولا الفشل المطلق. اشكر الله على ما أعانك عليه، واستغفر من تقصيرك، وأصلح حقاً بقي دون أداء.

الأيام ٨-١٤: اللسان والصدق

اليوم الثامن: ترك مقاطعة واحدة

اختر حواراً عادياً، واستمع حتى يفهمك المتحدث مقصده. لا تجهز جوابك طوال كلامه، واسأل عما لم يتضح. إذا قاطعته ناسياً، توقف ودعه يكمل. سجل بعد الحوار هل تغير فهمك حين

اتسع له وقت البيان، وهل كان بعض ردك الأول مبنياً على اقتراض.

اليوم التاسع: تصحيح عبارة غير دقيقة

انتبه إلى خبر تقوله عن نفسك أو عن واقعة. إن وجدت مبالغة أو جزماً بغير علم، فصححه في موضعه. استعمل «لا أعلم» و«بحسب ما أتذكر» حيث تصدقان. في المساء انظر إلى الحرج الذي خشيته: هل كان أهون من الاستمرار في كلام لا تتحمل مسؤوليته؟

اليوم العاشر: إيقاف الغيبة

إذا بدأ مجلس في ذكر عيب غائب بلا حاجة، فلا تضيف إليه. غير الموضوع أو بين برفق أن هذا لا ينفع، وانصرف عند الحاجة بما يناسب الحال. لا تعرض الغائب لتفاصيل جديدة أثناء دفاعك عنه. راجع هل شاركت بضحكة أو إشارة وإن لم تتكلم، واستغفر وأصلح ما تستطيع.

اليوم الحادي عشر: صدق الوعد

قبل أن توافق على طلب، انظر في وقتك وقدرتك. إن لم تستطع فاعتذر بوضوح، وإن احتجت إلى تفكير فاطلبه. راجع وعداً قديماً

أيضاً، وأنجزه أو بين مانعه. لا تجعل تمرين اليوم في تقليل الوعود سبباً للتوصل من التزام سابق تعلق به حق صاحبه.

اليوم الثاني عشر: جواب بلا تجريح

اختر ملاحظة تحتاج إلى قولها، وصغها بوصف الواقعة والطلب. اترك الحكم على شخصية المخاطب والعبارات المطلقة. قلها في وقت مناسب واستمع للجواب. في المساء قارن أثر هذا الوضوح بما يحدث عادة حين يبدأ الحديث باتهام، وخذ ما صح من تصحيح الطرف الآخر.

اليوم الثالث عشر: التثبت قبل الإرسال

راجع رسالة أو خبراً تنوي نشره. ابحث عن أصله وتاريخه وسياقه إذا كان يستحق النقل، وإلا فاتركه. لا تكتب «ما رأيكم في صحة هذا؟» مع مادة تتضمن اتهاماً ينشر السؤال ضرره. إن كنت قد نشرت خبراً خاطئاً، فاجعل عمل اليوم تصحيحاً واضحاً لمن وصل إليهم.

اليوم الرابع عشر: المراجعة الثانية

ارجع إلى سلوك اللسان في هذا الأسبوع. هل قل خبر تجزم به دون علم؟ هل أصبح اعتذارك أو رفضك أوضح؟ اختر عبارة بديلة

ثبت نفعها، واحتفظ بها للأسبوع التالي. واسأل نفسك عن أثر السكوت أيضًا: هل تركت كلمة حق كان ينبغي أن تقولها؟ أصلح ذلك بحكمة.

الأيام ١٥-٢٨: الرفق والحقوق والبذل

اليوم الخامس عشر: رفق في البيت

اسأل من يشاركك البيت عن حاجة محددة تستطيع تخفيفها. أنجزها دون تعليمات جارحة أو انتظار شكر. إن لم تعرف كيف تؤدي فتعلم، ولا ترد نصف العمل إلى صاحبه. لاحظ هل كنت رقيقاً في طريقة العرض كما كنت نافعاً في الفعل، وحافظ على الحق الذي التزمته.

اليوم السادس عشر: مهلة عند الغضب

استعد بعبارة توقف مهذبة، واستعد بالله عند الغضب. إذا احتجت إلى مهلة فاطلبها وحدد عودتك إلى الحديث حيث يناسب، ولا تستعملها عقوبة بالصمت. إن لم يقع موقف غضب فلا تصنعه للتدريب؛ راجع موقفاً سابقاً واكتب كيف تحمي اللسان واليد لو تكرر.

اليوم السابع عشر: شكر عامل أو خادم

عامل من يقدم لك خدمة بكرامة: سلّم، واشكر، ووضح المطلوب دون استعلاء، وأدّ ما له من حق. لا تختزل التمرين في كلمة شكر مع بقاء ظلم في أجر أو تكليف. لاحظ الفرق بين أدبك معه وأدبك مع صاحب نفوذ، واسأل الله أن يصلح ما تجد من تفاوت.

اليوم الثامن عشر: صدقة بلا منّ

قدم صدقة تناسب قدرتك بعد مراعاة الواجبات. اختر طريقة تحفظ كرامة الآخذ، ولا تنشر صورته أو حاجته. وإذا لم تقدر على مال، فقدم خدمة مباحة أو دعاء. في المساء راقب انتظار الشاء، وجدد القصد. لا يحملنك الحماس على تضييع نفقة لازمة أو حق مؤجل.

اليوم التاسع عشر: إنصاف مخالف

اختر رأياً تخالفه في أمر يمكن مناقشته بهدوء، وافهمه من كلام صاحبه دون تحريف. اذكر نقطة صحيحة إن وجدت، ثم بين موضع خلاfk بأدب. لا يلزم أن تدخل خصومة جديدة. المقصود تدريب النفس على قبول الحق في موضع لا تحب فيه صاحبه أو اختياره.

اليوم العشرون: اعتذار محدد

ارجع إلى إساءة تعرفها، واعتذر عنها دون «لكن» تعيد اللوم إلى المتضرر. بين ما ستصلحه، وافعل منه ما يمكن اليوم. لا تطلب من الآخر عفواً فورياً ولا شهادة على تغيرك. إذا كان التواصل المباشر غير آمن، فاطلب طريقاً أميناً مناسباً يحفظ الحقوق والسلامة.

اليوم الحادي والعشرون: مراجعة منتصف الطريق

راجع الخلق المحوري منذ البداية. هل ظهر التحسن في أكثر من علاقة، أم بقي أمام بعض الناس فقط؟ اختر موطن ضعف قريباً واجعل له تدبيراً محدداً. قلل تمريناً تطوعياً أثقلك إن احتجت، وأبق الواجبات في موضعها. ثم اسأل الله الثبات من غير اغترار بما مضى.

اليوم الثاني والعشرون: رد أمانة

راجع ما في يدك من ممتلكات أو بيانات أو أسرار أو صلاحيات. أعد ما انتهت حاجتك إليه، وصح استعمالاً تجاوز الإذن، وأخبر صاحب الحق بما يلزم. لا تحتفظ بنسخة خاصة من ملف لا يحق لك الاحتفاظ به. اجعل الأمانة اليوم في فعل تستطيع وصفه بدقة.

اليوم الثالث والعشرون: تغافل بوعي

اترك هفوة يسيرة لا يتعلق بها حق يحتاج إلى تدخل، من غير إعلان أنك تغافلت. وفي المقابل تابع مسؤولية كنت تؤجلها. اكتب الفرق بين الموضعين: لماذا نفع التجاوز في الأول، ولماذا لزممت المتابعة في الثاني؟ هذا التمييز يمنع أن تستعمل الفضيلة عذراً للإهمال.

اليوم الرابع والعشرون: صلة مناسبة

تواصل مع قريب بما يناسب حاله وحقه: زيارة أو اتصال أو خدمة أو سؤال. لا تبدأ بعتاب على أنه لم يبدأك، ولا تحول الصلة إلى تفتيش في خصوصياته. إذا كانت العلاقة تتضمن أذى، فاختر صورة آمنة مع سؤال أهل العلم فيما يشكل من حقوقها وحدودها.

اليوم الخامس والعشرون: إيثاري في مباح

تنازل عن حظ تملكه لمصلحة غيرك، كوقت أو اختيار مباح، دون أن تضيع حق من تعول أو حقاً أوتمنت عليه. لا تذكر التنازل عند أول اختلاف. تأمل هل أمكنك الفرح بفرح الآخر، وما الذي أثقل عليك. استعن بالله على الأثرة التي ظهرت دون جلد للنفس.

اليوم السادس والعشرون: حفظ خصوصية

راجع صورة أو رسالة أو قصة تخص غيرك قبل مشاركتها. تحقق من حقل في النشر وإذنه حيث يلزم، ومن الحاجة أصلاً. لا تجعل قريك منه إذناً عاماً. وإذا كنت قد تجاوزت، فأوقف الانتشار الممكن وأصلح الأمر معه بطريقة مناسبة. الأمانة في الحفظ خير من طرافة مشاركة تؤذيه.

اليوم السابع والعشرون: نصيحة نافعة

إن وجدت حاجة حقيقية إلى نصح، فتثبت من الواقعة واختر لفظاً وطريقاً مناسبين. بين فعلاً واحداً وأثره وما يمكن إصلاحه. لا تجمع عيوب الشخص، ولا تلزم نفسك بصناعة موقف نصح إن لم يوجد. ويمكن أن يكون عمل اليوم قبول نصيحة صادقة لم تحسن استقبالها سابقاً.

اليوم الثامن والعشرون: المراجعة الرابعة

اسأل عن الحقوق التي تحسنت وعن الحقوق التي بقيت. هل تعلمت من رفقك شيئاً عملياً؟ هل نشأ من ذلك من لم تنتبه إليه؟ اختر عملاً ستثبته في الأيام الباقية، وحقاً يحتاج إلى استكمال. لا تكتف بحسن الانطباع العام إذا كانت واقعة محددة لم تصلح بعد.

الأيام ٢٩-٤٠: الثبات ونقل الخلق إلى الحياة

اليوم التاسع والعشرون: عدل في قرار

في قرار يخص غيرك، وضح القاعدة واسمع ما يلزم من معلومات قبل الحكم. اسأل هل ستبقيها لو كان المستفيد قريباً لك أو شخصاً تخالفه. إن لم يكن لك قرار اليوم، فراجع حكماً سابقاً وأصلح ما ثبت خطؤه. لا تجعل المحافظة على صورتك سبباً لإبقاء مظلمة.

اليوم الثلاثون: عبادة يتبعها حق

أحسن أداء صلاة من صلوات يومك، واستحضر حاجتك إلى هداية الله، ثم قم بحق قريب بعد الصلاة. لا تخصص لهذا الربط ثواباً أو هيئة تعبدية؛ هو تذكير عملي بأثر الطاعة. راجع هل كانت عبادتك اليوم تعينك على المعاملة، أم جعلت نافلة عذراً لتأخير ما لزمك.

اليوم الحادي والثلاثون: أمانة في العمل

اختر مهمة أو دراسة أو خدمة تعاقدت على أدائها، وأنجزها بأمانة دون إخفاء نقص يؤثر في صاحب الحق. إذا احتجت إلى مساعدة فاطلبها مبكراً. لا تسرق فضل غيرك في التقرير أو العرض. وفي

نهاية العمل أعط صورة صادقة عما تم وما بقي وما يحتاج إلى قرار.

اليوم الثاني والثلاثون: مزاح بلا أذى

اصنع الأنس بكلام صادق مباح يحفظ كرامة الجالسين. امتنع عن لقب يكرهونه أو تعليق على هيئة أو سر. إذا أخطأت وتأذى أحد فاكفف واعتذر دون اتهامه بضيق الصدر. لاحظ هل كان بعض ما اعتدته من المرح قائماً على حرج شخص لا يستطيع الاعتراض.

اليوم الثالث والثلاثون: ترك المرء

إذا طال حوار وقد اتضح موضع الخلاف ولم يبق إلا تكرار، فإنه بأدب. لا ترسل تعقيباً أخيراً لمجرد إثبات أنك قادر على الرد. إن كان ثمة حق يحتاج إلى حسم، فانقل الأمر إلى طريقته المناسب من تحكيم أو توثيق أو سؤال علمي، بدل تحويله إلى خصومة مفتوحة.

اليوم الرابع والثلاثون: طلب عون مناسب

راجع مشكلة تكرر رغم محاولتك. هل ينقصك علم، أم ترتيب، أم مهارة، أم مساعدة مختصة؟ اطلب عوناً محدداً من أهله، مع

حفظ خصوصيات من يتعلق بهم الأمر. لا تؤجل المساعدة العاجلة إلى هذا اليوم إن وجد خطر قبله؛ الحقوق والسلامة لا تنتظر ترتيب البرنامج.

اليوم الخامس والثلاثون: مراجعة البيئة

اختر مصدرًا متكررًا للغيبة أو الاستفزاز أو المقارنة المؤذية، وقلل تعرضك له بما تستطيع. عوض بعض الوقت بصحبة أو قراءة أو خدمة نافعة. لا تحتقر من بقي في المجلس، ولا تقطع حقًا لازمًا. راقب هل أعانك تغيير جزء من البيئة على السلوك الذي تجاهد نفسك عليه.

اليوم السادس والثلاثون: خير مع غياب الشكر

أدِّ حقًا أو خدمة معتادة من غير أن تطالب بتقدير خاص. لا تعتمد وضع نفسك في استغلال، ولا تسقط ما لك من حقوق؛ المقصود ألا تجعل الشكر ثمنًا لأداء الواجب أو لإحسان اخترته. إن وجدت ألمًا لغيابه فسمِّه، ثم جدد قصدك واطلب ما تحتاج إليه بأدب.

اليوم السابع والثلاثون: مراجعة انتكاسة

اختر زلة وقعت خلال المدة، وانظر هل أصلحت أثرها أم اكتفيت بالندم. أكل ما بقي، ثم اكتب سبباً واحداً وخطوة تمنع تكراره بقدر الاستطاعة. لا تعاقب نفسك بحرمان مؤذ، ولا تعد البداية كلها ملغاة. الرجوع الصادق اليوم جزء من الطريق الذي رجوت الثبات عليه.

اليوم الثامن والثلاثون: ملاحظة من قريب

اسأل الشخص الأمين الذي كلمته أولاً عن تغير محدد لاحظته، وعن سلوك ما زال يحتاج إلى عمل. لا توجه جوابه إلى المدح ولا تجادل فوراً. قارن الملاحظة بما سجلته، وخذ ما صح منها. ومن حسن الأدب أن تشكره، أما تحقق التحسن فمسؤوليتك التي تستعين بالله عليها.

اليوم التاسع والثلاثون: اختيار ما سيبقى

اختر عملاً أو عملين تستطيع المحافظة عليهما بعد انتهاء المدة: مراجعة ذمة أسبوعية، أو مهلة قبل جواب غاضب، أو خدمة ثابتة. حدد موضعهما في حياتك، وما ستفعله إذا تعثرت. لا تحمل الغد كل ما تمنيت إصلاحه؛ أبق طريقاً واضحاً يتسع للزيادة مع ثبات الأصل.

اليوم الأربعون: شكر وعهد عمل

اقرأ ما بدأت به، واشكر الله على كل خير أعانك عليه. استغفر من التقصير، وأكمل الحقوق التي بقيت، واكتب الخطوة التالية بصدق. لا تمنح نفسك شهادة بانتهاء المجاهدة. اختتم بالدعاء المأثور أن يهديك الله لأحسن الأخلاق ويصرف عنك سيئها، ثم استأنف الحياة بالفعل الذي اخترت المحافظة عليه.

الكتاب الحادي عشر — الأخلاق في دوائر الحياة

مدخل الكتاب

تظهر قيمة ما تعلمناه حين يعود القارئ إلى من يعرفونه كل يوم. هؤلاء يرون كيف يعد ويغضب ويعتذر، وكيف يعامل من يحتاج إليه، وكيف يتصرف إذا لم يجد شكراً. ولا نتساوى الحقوق في كل علاقة؛ للوالدين حق، وللزوجين حقوق، وللجار والعامل وصاحب الدين حقوق أخرى، ويجمعها عبادة الله والعدل والرحمة والوفاء.

نحتاج في هذه الدوائر إلى أصل ثابت وبيان يناسب الحال. فلا نسقط حق قريب لأننا أحسننا إلى بعيد، ولا نجعل صدقة نافلة عوضاً عن دين، ولا نطلب من المظلوم أن يحمل وحده عبء صلاح العلاقة. كل منا يبدأ بما عليه، ويسأل الله أن يعينه على أداء الحق وطلبه بخلق حسن.

الفصل ١٥١ — مع الوالدين والأرحام

قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. يربي هذا الخطاب على كف أدنى التضجر، ثم

يفتح باب القول الكريم. لا يقتصر البر على أن نخلو من الإهانة؛
نسأل عن الحاجة، ونصغي، ونراعي ما يطرأ من ضعف وكبر،
وندعو كما علمنا الله: ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:
٢٤].

جاءت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وهي مشركة،
فسألت أسماء النبي ﷺ عن صلتها، فقال: «نعم صلي أمك». [١٨٠].
يبقى حق الأم مع اختلاف الدين، مع بقاء أصل أنه لا طاعة في
معصية. وقد جمع القرآن هذا في قوله عند الأمر بالشرك: ﴿فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

ومن البر أن نفهم الحاجة بدل الاكتفاء بما نحب نحن تقديمه. قد
يحتاج الوالد إلى صحة في موعد، أو إلى شرح هادئ لأمر مستجد،
أو إلى اتصال لا تقطعه انشغالاتنا كل دقيقة. وإذا كان بين
الإخوة توزيع للرعاية، فالعدل والتعاون أولى من تبادل اللوم. من
عجز عن جانب أعان في آخر، ولا يجعل قرب أحدهم ذريعة
لتحميله كل العمل.

وفي الأرحام لا نحصر الصلة في تبادل مكافآت متساوية. نبدأ بما
نقدر عليه من معروف، لكن لا نفتح بابه لاستمرار أذى شديد.
يمكن صيانة البر مع حدود آمنة، وطلب وساطة أمينة، وسؤال

أهل العلم في التفاصيل التي تتعارض فيها مطالب وحقوق. لا يجوز أن يصبح اسم البر سبباً لإقرار اعتداء أو إجبار على محرم.

راجع حاجة واحدة لوالديك أو قريبك، وأدها في وقت يناسبه. وإذا احتجت إلى اعتذار عن طلب لا تستطيع تلبية، فليكن صادقاً كريماً، مع عرض بديل ممكن. إن حضور الأدب عند الرفض أظهر في تربية النفس من لينها حين توافق على ما تحب.

الفصل ١٥٢ — بين الزوجين

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. وقال النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر». [١٨١]. لا يحجب عيب واحد وجوه الخير كلها، ولا تبيح لحظة غضب محو أعوام المعاشرة. ويحتاج الزوجان إلى هذا الإنصاف المتبادل، مع معرفة الحقوق التي شرعها الله لكل منهما.

ويشرح النووي النهي في حديث «لا يفرك مؤمن مؤمنة» بأنه نهى عن البغض الذي يغفل معه المرء عما في صاحبه من خصال مرضية. [١٨٢]. وفي هذا تربية للنظر على العدل، لا أمر بإلغاء التمييز بين زلة محتملة وأذى يستلزم حماية أو إصلاحاً. فمن الإنصاف أن نرى الإحسان ولا تحوه خصومة عارضة، ومن الإنصاف كذلك أن نعالج الخطأ الحقيقي ولا نغطيه بتعداد المحاسن. ولا يخول هذا الحديث أحداً أن يمنع متضرراً من طلب حق أو مشورة مختصة.

المعروف يظهر في تفصيل اليوم: صدق الحديث عن المال، وحفظ السر، والوفاء بما اتفق عليه، وتقدير التعب، وترك الإهانة عند الخلاف. ليس مطلوباً أن تتطابق الأذواق، بل أن يبقى الاختلاف قابلاً للكلام بأمان. يناقش الزوجان أمراً محدداً في وقت مناسب، ويتعدان عن التعميم وعن إدخال العائلات والأسرار في كل خصومة.

ومن العدل أن يفرقا بين ما لزم شرعاً، وما اتفقا عليه اتفاقاً صحيحاً، وما هو إحسان زائد. الغموض في هذه المراتب يكثر به النزاع؛ يظن كل واحد أن توقعه الشخصي حق معلوم للآخر. يسألان ويتعلمان ويوضحان ما يحتاج إلى توضيح، ولا يستعمل أحدهما النصوص ليطالب دائماً بما له ويهمل ما عليه.

والحياة الزوجية ليست حجة لترك الخصوصية كلها أو مراقبة الشريك بلا حد. الثقة تصحبها أمانة وصدق، ومعالجة خللها تحتاج إلى وقائع وحوار وإصلاح. إذا وقع عنف أو تهديد أو إكراه، فالحماية ووقف الأذى أولاً، ويطلب العون المناسب. لا يجوز أن نحول الوصية بالصبر أو ذكر محاسن الطرف الآخر إلى إسكات للمتضرر.

ليجلس الزوجان إلى سؤال صغير قابل للفعل: ما الشيء الذي إذا تغير هذا الأسبوع خفف عنك وأحسن عيشنا؟ ليسمع كل منهما

قبل الجواب، وليختاروا التزاماً ممكناً. ثم يراجعان أثره من غير محاكمة. المودة تحتاج إلى عناية متكررة، والاعتذار يصدق حين يليه تغيير يراه الطرف الآخر في حياته.

الفصل ١٥٣ — مع الأبناء والمراهقين

قال النبي ﷺ في قصة عطية النعمان بن بشير: «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم». ^[١٨٣]. يحتاج الأبناء إلى عدل يعلمهم أن الحب لا يتحول إلى محاباة ظالمة، وإلى رحمة تفتح لهم باب السؤال والاعتراف. ومن الخطأ أن نطالبهم بالصدق ثم نجعل اعترافهم بخطأ سبباً لإهانة لا نهاية لها.

يتعلم الطفل من طريقتنا في معالجة أخطائنا كما يتعلم من أوامرنا له. إذا اعتذر الكبير حين يسيء، عرف الصغير أن الرجوع شرف. وإذا أخذ مالاً ليس له ثم رده، أو وعد فوفى، رأى معنى الأمانة في فعل قريب. أما المواعظ التي يناقضها السلوك، فقد تعلم الطفل أن الكلام الأخلاقي أداة سلطة لا ميزاناً مشتركاً.

والتعليم يحتاج إلى وضوح يناسب العمر والقدرة. نقول ما الفعل المطلوب ولماذا، وتؤكد أنه مفهوم، ونضع حدوداً متسقة لا تتغير مع مزاج الكبير. لا نسخر من سؤال، ولا نلقب الطفل بالكسل أو الكذب لقباً ثابتاً، بل نعالج الواقعة ونعلمه بديلها. وله أن يسأل ويطلب المساعدة ويبلغ عن أذى دون تهديد بالفضيحة.

ومع المراهق تتسع الحاجة إلى الإنصات وبيان الأسباب وإتاحة مسؤوليات مناسبة. ليس اختلاف رأيه في مباح دليل عقوق في نفسه، ولا طلبه مساحة خاصة دليل فساد. في الوقت نفسه تبقى مسؤولية الرعاية والمتابعة بحسب السن والحال والخطر الحقيقي. لا نجعلها تجسساً مطلقاً، ولا نتركها غفلة عن أذى ظاهر.

اختر حواراً تسمع فيه ابنك دون تحويل كل جملة إلى موعظة. اسأله عما يشق عليه، ثم أعنه على خطوة عملية. وإذا احتجت إلى وضع حد، فضعه بوضوح وهدوء، دون سب أو تخويف مهين. نريد أن يتعلم كيف يفعل الصواب، وأن يعرف أن كرامته محفوظة حين يحتاج إلى تصحيح.

الفصل ١٥٤ — مع الجار والضيف

جمع النبي ﷺ النبي عن أذى الجار وإكرام الضيف وقول الخير في حديث واحد. ^[١٨٤] تبدأ أخلاق الجوار بكف الأذى الذي قد لا ننتبه إلى أثره: صوت يتكرر في وقت راحة، أو تضيق ممر مشترك، أو إهمال يضر بمرافق الناس، أو كشف خصوصيات تطلعنا عليها لقرب المسكن.

وفي شرح ابن رجب لحديث الإيمان والكلام والجار والضيف يتصل صلاح اللسان بصلاح المعاشرة؛ فلا يستغني أحدهما عن الآخر. ^[١٨٥] وقد نطبق هذا المعنى في أشياء لا تلفت الأنظار:

ضوضاء يمكن خفضها، وممر مشترك لا نستولي عليه، وخصوصية لا نراقبها، وسؤال نعين فيه على قدر الحاجة. وهذه أمثلة معاصرة، لا ألفاظ واردة في الخبر. ومن تمام حسن الجوار أن نطلب حقنا عند المشكلة بأدب ووضوح، دون أن نسعى إلى جمع أهل الحي على خصومة شخصية أو نشر ما اطلعنا عليه من أسرار.

لا يلزم أن نعرف كل شؤون الجار لنحسن جواره. نحفظ حدوده، ونسأل عن حاجة ظاهرة بأدب، ونقدم ما يناسب من مساعدة. وإذا وقعت مشكلة، نبدأ ببيان محدد دون اتهام: حدث هذا الأذى في هذا الوقت، ونرجو أن تتفق على ما يمنع تكراره. فإن استمر، اتبعنا الطريق المشروع الذي يحفظ الحقوق دون عدوان أو تشهير زائد.

وإكرام الضيف يكون بالاستقبال الحسن وما ييسر من طعام ومجلس وعناية. لا يحتاج إلى منافسة تجهد أهل البيت أو نفقة يقصد بها التفاجر. ومن الأدب أن يعرف الضيف حدود مقامه، وألا يخرج المضيف بإطالة أو طلب لا يناسب قدرته، وأن يحفظ ما رأى وسمع من خصوصية.

قد يعتذر أهل البيت عن زيارة في وقت ما، فينبغي أن نقبل اعتذارهم دون تحقيق في صدقه أو لوم على قلة المحبة. الاستئذان يحفظ حقهم في الراحة والتنظيم، ولا يجعل الدعوة العامة إذناً في

كل ساعة. وإذا كان لأحدهم حال خاصة، كمرض أو حزن، سألنا عن الأنسب قبل الزيارة بدل أن نحمل إليه عبء استقبالنا.

ابحث عن أذى من جهتك تستطيع رفعه اليوم، فقد يكون رفعه أنفع لجارك من هدية تأتي مع بقاءه. وإذا ضفت أحداً، فكن خفيفاً كريم النفس، تشكر المتيسر ولا تقارن ضيافته بغيره. حسن الخلق يطلب من صاحب البيت ومن داخله جميعاً.

الفصل ١٥٥ — في العمل والتجارة والديون

مر النبي ﷺ على صبرة طعام، فوجد فيها بللاً مخفياً عن أعين الناس، وقال لصاحبها: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني».^[١٨٦] أمانة البيع تقتضي أن يظهر ما يؤثر في اختيار المشتري، لا أن يترك ليكتشف بعد الدفع ما كنا نعرفه قبله.

ومما يذكره السعدي في تفسير الأمر بالعدل الوفاء بما على الإنسان في المعاملات، ومن ذلك ألا يظلم في البيع والشراء وسائر المعاضات.^[١٨٧] ومن تطبيق هذا الأصل في العمل أن يكون الوقت والمال والمعلومة المؤتمن عليها حقائق ملزمة، لا تفاصيل تبررها براعة الاعتذار. لا يعوض لطف الموظف عن خيانة أمانة، ولا تعوض كلمة المدير الطيبة عن تأخير حق مستحق. وتزداد قيمة الرفق حين يصحب العدل؛ فيعرف الطرفان ما لهما وما عليهما، ويقع التصحيح دون احتقار.

يدخل في المعنى اليوم صدق وصف السلعة والخدمة، وبيان الشروط المؤثرة، وترك الشهادات والتقييمات المصنوعة، وعدم إخفاء نقص جوهري بصورة منتقاة. والمشتري أيضاً مأمور بالعدل: لا يدعي عيباً لم يقع ليأخذ تعويضاً، ولا يستعمل خدمة ثم ينكر حصولها، ولا يؤذي العامل لأن قراراً لا يملكه لم يوافق رغبته.

وقال النبي ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى». [١٨٨]. السماحة لا تسقط حقاً بلا رضا، لكنها تضبط طريقة طلبه: وضوح دون إذلال، وتيسير في موضعه، وترك خصومة لا تستحق ما تجره من أذى. والدائن مأمور بإنظار المعسر [البقرة: ٢٨٠]، والمدين مطالب بالصدق وعدم المماطلة مع القدرة.

وفي العمل تكون الأمانة في الوقت المتعاقد عليه، وفي جودة ما نستطيع، وفي الإبلاغ المبكر عن خلل مؤثر. لا ينسب المدير جهد موظفيه إلى نفسه، ولا يخفي الموظف تقصيراً يحمل غيره تبعته. ومن عدل المؤسسة أن تعطي العامل حقه ومعلومة واضحة عن المطلوب، وأن تتيح له بيان عائق لا يملكه.

راجع اليوم وصفاً تضعه لعملك أو سلعتك: هل يفهم منه الطرف الآخر أكثر مما تستطيع تقديمه؟ أصلحه قبل أن يصبح عقداً أو

وعداً. وراجع ديناً لك أو عليك، واختر له طريقاً صادقاً يحفظ حق الطرفين. المال من المواطن التي يظهر فيها صدق ما نقوله عن الأخلاق.

الفصل ١٥٦ — في القيادة والإدارة وخدمة الناس

من دعاء النبي ﷺ: «ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».^[١٨٩] من ولي شأنًا صغيراً أو كبيراً يقدر أن ييسر بالعدل، ويقدر أن يشق بالتعسف. وقد يرى القرار من مكتبه إجراءً يسيراً، بينما يحمل أثره موظف أو مراجع يحتاج إلى وقت ومال لا يملكه.

الرفق الإداري يبدأ بوضوح الخدمة ومعياري استحقاقها وطريق طلبها. لا يرسل الناس من جهة إلى أخرى دون حاجة، ولا يترك الجواب غامضاً ليظلوا متعلقين بصاحب السلطة. وإذا لم يمكن قضاء الطلب، يبين السبب والطريق المتاح إن وجد. حسن العبارة لا يغني عن إصلاح إجراء ظالم أو معقد بلا فائدة.

ومن الأمانة أن يسمع المسؤول نقداً لا يمر كله عبر من يحرصون على رضاه. يتيح قناة شكوى تحفظ كرامة صاحبها وتمنع الانتقام منه، ويفحص الوقائع قبل الحكم. وإذا ثبت خطأ من فريقه، أصلحه دون إذلال الموظف أمام الناس، ولا يحمله تبعة توجيهه غامض أو موارد لم توفر له.

ولا يكون الرفق مساواة بين مجتهد ومهمل في كل نتيجة، أو تركاً لخطأ يضر الآخرين. من العدل تقدير العمل ومحاسبة التقصير بمقيار معلوم متناسب، مع حق البيان. كما لا يصح استعمال العقوبة لتصفية خلاف شخصي، أو استعمال المكافأة لشراء الولاء على حساب الكفاءة والأمانة.

ليختر كل من له مسؤولية إجراءً واحداً يثقله الناس، ويسأل عن سببه وإمكان تحسينه. قد تكون رسالة أوضح، أو موعداً يحترم، أو صلاحية تعاد إلى موضعها. لا يحتاج حسن الخلق هنا إلى خطبة طويلة؛ يحتاج إلى قرار يرى أثره من نصبنا لخدمتهم.

الفصل ١٥٧ — في الخصومة والقضاء والحقوق

بين النبي ﷺ أن بعض الخصوم قد يكون ألحن بحجته من بعض، وحذر من أخذ ما حكم به للمرء من حق أخيه وهو يعلم أنه ليس له. [١٩٠]. القدرة على عرض الدعوى لا تجعل الباطل حقاً، ولا يغير الحكم الظاهر حقيقة ما يعمله الإنسان من نفسه.

من خلق الخصومة أن نصدق في الوقائع، ونحفظ الأدلة دون تحريف، ولا نحذف ما يبطل جزءاً من دعوانا، ولا نحمل شاهداً على كلام لم يره. ومنه أن نميز بين المال أو الاعتذار الذي نطلبه، وبين رغبة في إذلال الخصم واستنزافه. يجوز طلب الحق بالطرق

المشروعة، ولا يجوز توسيع الخصومة إلى أهله أو أسراره التي لا تتعلق بها.

والصلح خير حيث صح وحقق رضا معتبراً، لكنه لا يكون ضغطاً على الأضعف ليتنازل حتى يرتاح الوسطاء. يسمع المصلح من الطرفين، ويبين ما فهم، ولا يعد بنتيجة لا يملكها، ولا يكشف سراً أو تمن عليه بحجة استعجال الاتفاق. وإذا احتاج النزاع إلى قضاء أو خبرة، أُحيل إلى أهله بدل حسمه بعاطفة المجلس.

لا نقدم هنا حكماً تفصيلياً لقضية بعينها؛ تختلف العقود والبيانات والأنظمة والملاسات، ويرجع فيها إلى القاضي والمختص وأهل الفتوى. لكن الصدق والأمانة وترك الاعتداء أصول لا يستغني عنها الخصم في أي طريق يسلكه. ولا يعفيه توكيل غيره من مسؤولية ما يزوده به من معلومات أو يطلبه منه من فعل.

اكتب دعواك في جمل خالية من الأوصاف الجارحة: ما الذي وقع؟ وما دليلك؟ وما الحق الذي تطلبه؟ ثم اعرضها على أمين يحسن المجال. هذا الوضوح يقرب العدل، ويكشف للنفس ما أدخلته من غضب لا يخدم حقاً.

الفصل ١٥٨ — مع المخالف في الدين والرأي

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. في الآية بيان للبر والقسط مع من وصفهم الله، فلا نجعل اختلاف الدين مبيحاً للغش أو الظلم أو نقض الأمانة.

ومن الجوامع التي ذكرها ابن تيمية النبي عن البغي والاستطالة على الخلق. ^[١٩١] وليس اختلاف الاعتقاد إذناً بالكذب أو الخيانة أو انتهاك حق معصوم. نحافظ على ديننا، ونبين ما تؤمن به، ونعدل في نقل قول من نختلف معه. ومن التطبيق أن لا ننسب إلى جماعة قولاً لم يثبت عنها لجرد أننا نخالفها، وألا نفرح بخبر مسيء قبل التحقق منه. هذا باب يلتقي فيه صدق اللسان وعدل الحكم؛ والتمسك بالحق أحوج إلى الأمانة، لا أقل حاجة إليها.

يثبت المسلم على دينه، ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبين ما يعتقد من غير كذب على معتقد غيره. احترام كرامة المخاطب لا يقتضي تصحيح كل ما يقول، كما أن إنكار الباطل لا يبيح السخرية من شخصه أو الاعتداء عليه. يفرق في الكلام بين بيان عقيدة أو فعل وبين حكم على فرد بما لم يثبت في حقه.

وفي اختلاف الرأي بين المسلمين ثغافوت المسائل: منها ما هو ظاهر الحكم، ومنها ما يحتاج إلى اجتهاد وخبرة. من الأمانة ألا نجعل كل اختيار شخصي قضية ولاء وعداء، وألا ننقل خلافاً فقهيّاً معتبِراً إلى اتهام في الدين. ومن لم يعلم مأخذ القول سأل وتعلم، ولم يعوض نقص علمه بارتفاع صوته.

وقد يحتاج الحوار إلى توقف إذا غلبت عليه السخرية أو فقد شروط الأمان. لا يجب أن نجيب كل تعليق، ولا أن نقبل كل مجلس مناظرة. نختار ما ينفع، ونرجع فيما لا نحسن إلى أهله. وفي حال التعاون على مصلحة مباحة، نبين الحدود بصدق ونؤدي الأمانة، ولا نستغل الثقة للإضرار بمن خالفنا.

اختبر عدلك في خبر عن جماعة لا تحبها: هل ثبت كما تثبت لأصحابك؟ وهل تذكر الفعل الصحيح إذا صدر منها؟ لا يقتضي هذا ترك الحق الذي تعتقده، بل يقتضي ألا يفسد الهوى شهادتك. كل نفس مسؤولة عن عدلها، ولو قصر الآخرون في العدل معها.

الفصل ١٥٩ — في التواصل والنشر والخصوصية

قال تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. يدخل في مسؤولية القول ما نكتبه ونشره وننقله. لا يصبح اللسان أمانة في المجلس ثم تزول الأمانة حين يتحول إلى رسالة أو تعليق. وقد تتسع تبعة النشر لبقاء المادة وسهولة وصولها إلى من لم نقصده أولاً.

وإذا نقلنا ضابط النوي في الكلام المباح لحاجة إلى النشر الرقي،
ظهر أن سهولة النشر لا توسع الإذن الشرعي.^[١٩٢] فهذا تطبيق
معاصر للضابط، لا كلام له عن وسائل لم تكن في عصره:
الشكوى إلى من يستطيع إنصافك ليست كعرض تفاصيل الناس
على جمهور لا يحتاج إليها، والتحذير المعتبر ليس جمعاً لكل عيب في
الخصم. نسأل قبل الإرسال: ما الغرض الصحيح؟ ومن يحتاج إلى
هذه المعلومة؟ وما القدر الكافي؟ وإذا زال الغرض أو تبين الخطأ،
فالتصحيح وإزالة الأذى جزء من مسؤولية النشر.

قبل النشر نراجع الصدق والحاجة والحق في الكشف. قد تكون
الصورة صحيحة لكنها خاصة، وقد تكون القصة نافعة في أصلها
لكن يمكن بيان معناها دون فضح صاحبها. وموافقة شخص على
رسالة خاصة لا تعني موافقته على عرضها للجمهور. كذلك لا يدل
وجود مادة في متناولنا على أن استعمالها بلا حدود جائز.

ومن أدب النقد أن نوجهه إلى قول أو فعل معلوم، وأن نترك
جمهور المتابعين من التحريض على الإهانة. إذا ظهر خطأ فيما
نسبناه، نصحه بوضوح مناسب لانتشاره. لا نضع التصحيح في
مكان لا يراه من رأى الاتهام، ولا نقول إن مسؤوليتنا انتهت لأننا
نقلنا عن غيرنا. الاشتراك في نشر الخطأ يحتاج إلى اشتراك في
إصلاحه.

وفي المجموعات العائلية والمهنية نراعي أوقات الناس وموضوع المجموعة، ولا نثقلها برسائل نكرر بلا نفع. وإذا احتاج الأمر إلى نقاش خاص، فلا نجعل الجمهور وسيلة ضغط. ومن حق من يخشى أذى رقيقاً أن يحفظ ما يلزم من دليل، ويبلغ الجهات المختصة، ويستعمل وسائل الحماية المتاحة دون عدوان مقابل.

راجع قبل أن ترسل: هل أَرْضَى أن أنسب هذه الكلمات إلى نفسي أمام من له الحق؟ وهل أعلم ما يكفي لتحملها؟ وهل ينفع إرسالها الآن؟ إن لم يتبين خير، فاتركها. ما أكثر ما يحفظ الصمت من علاقة، وما أجمل أن يكون حضورنا المكتوب سبب طمأنينة وعلم ونفع.

الفصل ١٦٠ — أخلاق الخفاء

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. تنتهي هذه الفصول إلى الموضع الذي لا يراه الناس. هناك يختار الإنسان أن يحفظ الأمانة أو يخونها، وأن يترك حقاً ليس له أو يأخذه، وأن يدعو لأخيه أو يسترسل في تمنى زوال نعمته. لا يغيب شيء من ذلك عن علم الله.

ومن دقة نصيحة ابن حزم في علاج العجب أن يعود المرء إلى ما يعرفه من تقصيره، فلا تسكره منزلته عند الناس. ^[١٩٣]. وفي الخفاء تظهر ثمرة هذا التذكر: حق لا يراه أحد فنؤديه، وخطأ لا يقدر

صاحبه على الشكوى فنعتذر منه، وخير لا يحمل اسمنا فنحبه. وليس المطلوب أن نعلن عيوبنا، بل أن نصلحها، وأن نشكر الله على ستره وعونه. ومن رزق خيراً خفياً فليحفظ إخلاصه، وليبق خائفاً من التقصير راجياً رحمة ربه، غير مانّ بعمله ولا آمن على نفسه.

أخلاق الخفاء تصلح أخلاق العلانية؛ من صدق حيث لا يخشى كشفاً أعان نفسه على الصدق في المجلس. ومن حفظ سراً بعد خصومة، علم أن الأمانة عنده أوسع من الرضا الشخصي. ومن نصر غائباً بكلمة عادلة دون أن يخبره، وجد موضعاً يربي فيه طلب الأجر من الله.

ولا نقصد بالخلوة مراقبة مرهقة لكل خاطر عابر حتى يعجز الإنسان عن عيشه. نتعلم ما نكلف به، وندفع الخاطر السيئ دون استرسال، ونصلح ما اخترناه من قول وفعل وقصد. لا نطالب أنفسنا بعلم الغيب عن قبولنا ومصيرنا، بل نرجو ونخاف ونعمل، ونسأل الله قلباً سليماً وحسن خاتمة.

إذا رجعنا إلى أول الكتاب وجدنا الدعاء نفسه لا يزال حاجتنا: أن يهديننا الله لأحسن الأخلاق وأن يصرف عنا سيئها. كل ما عرفناه لا يغنينا عنه، وكل ما وفقنا إليه لا يجعلنا فوق النصيحة.

نحن عبيد نخطئ ونتوب، ويسترنا الله فنشكره، ويبين لنا عيباً فنرجو
أن يكون بيانه أول إصلاحه.

اختر خيراً يبقى بينك وبين الله، وحقاً تؤديه وإن لم يطالبك به
أحد، وشرّاً تكف عنه وإن قدرت عليه. ثم امض في حياتك
متعلماً عاملاً، رقيقاً بمن يسعى معك، صادقاً في الرجوع إذا زلت.
اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت،
واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

خاتمة الرحلة

حتى يظهر العلم في المعاملة

لا تنتهي حاجة القلب إلى الهداية بانتهاء القراءة. قد نغلق الكتاب وقد عرفنا من فضل الحلم والصدق والرحمة ما لم نكن نعرفه، ثم يأتي موقف صغير يختبر ما عرفناه: سؤال يتكرر، أو موعد يتأخر، أو كلمة لا تعجبنا. هناك يبدأ أثر العلم، حين نستعين بالله ونختار قولاً أحسن، أو نكف يدًا عن أذى، أو نرد حقًا نعلم أن صاحبه ينتظره.

ليست ثمرة هذه الرحلة أن نخرج منها نحاكم أخلاق الناس أسرع مما كنا نفعل. ثمرة العلم أن نزداد بصيرة بما علينا، وأن نكون أعدل في الحكم على غيرنا. من عرف شدة مجاهدته لنفسه لم يستهن بزلة أخيه، ومن ذاق مرارة الظلم لم يطلب لنفسه حقًا بايقاع مثله على سواه. ومع الرحمة يبقى البيان، ومع الستر يبقى رد الحقوق، ومع الاعتذار يبقى العمل الذي يمنع تكرار الأذى.

وما أحوجنا إلى خلق يثبت إذا ضعف سلطاننا على الصورة التي يراها الناس! يسهل أن نتهياً للقاء عابر، لكن العمر يسكن في تفاصيل تكرر: كيف نخاطب من يخدمنا؟ وكيف نجيب والدا كبر سنه؟ وكيف نسمع شكوى من أخطأنا في حقه؟ وكيف

نحفظ سرّاً بعد خصومة؟ في هذه المواطن لا ينفعنا أن نقول إن قلوبنا طيبة ثم نترك الجراح التي تحدثها أفعالنا بلا إصلاح.

حسن الخلق عبادة نطلب بها رضا الله، وليس ضماناً أن يحبنا كل أحد أو أن تعود إلينا كل منفعة قدمناها. قد نصدق فيغضب من كان ينتفع بكذبنا، ونعدل فلا يرضى من اعتاد امتيازاً لا يستحقه، ونضع حداً للأذى فلا يقبله المعتدي. عندئذ نراجع علمنا وقصدنا وطريقتنا، ثم نمضي في الحق برفق وثبات. لا نجعل رضا الناس ميزاناً منفرداً، ولا نتخذ مخالفتهم دليلاً على صلاحنا؛ فالميزان ما شرعه الله، ويعيننا على فهمه العلم والنصيحة.

ومن بركة التواضع أن يبقى للإنسان باب يقبل منه التصحيح. لا تقل لمن نصحك: لقد قرأت في الأخلاق وعرفت طريقها. سل عما رآه، وانظر هل صدق، واشكره على ما أصاب. ورب كلمة ضاق بها صدرك أول الأمر كشفت لك عيباً كنت تحميه باسم الطبع أو المزاح أو الحزم. ليست محبة النفس أن نبرئها في كل موقف؛ من محبتها أن ننقذها من ظلم تقيم عليه.

ولا تجعل تعثراً واحداً حكماً على سائر عمرك. الذنب يستوجب توبة، والمظلمة تستوجب إصلاحاً، لكنه لا يسوغ اليأس من رحمة الله. ابدأ من الفعل الذي تستطيع إصلاحه اليوم. إن أخذت مآلاً فرده، وإن نشرت خبراً باطلاً فصححه في الموضع الذي نشرته

فيه، وإن جرحت إنساناً فاعتذر دون أن تلزمه بطمأنتك فوراً. ثم احم توبتك بسبب عملي: وقت تؤخر فيه الجواب، أو عادة تتركها، أو صحبة تستعين بها، أو علم تتعلمه قبل أن تتكلم.

وقد يتبين لك أن خصلة معينة تحتاج زمناً أطول من البرنامج الذي اخترته. فواصل المجاهدة دون أن تجعل طول الطريق حجة لتركه. ليست الأيام الأربعون حداً تنتهي عنده التربية، ولا عدداً تقاس به منزلة العبد عند الله. هي ترتيب يساعدك على بداية منتظمة؛ أما الصدق والرحمة والأمانة فرفقاء العمر. إذا انقضت المدة فانظر إلى الحقوق التي أديتها، والأذى الذي كلفته، والخلق الذي يحتاج مزيداً من العمل، ثم واصل بما تقدر عليه.

واجعل الدعاء حاضراً في البداية وفي أثناء الطريق وبعد ما تراه من التوفيق. إذا نجحت فلا تغتر، وإذا ضعفت فلا تستغن عن ربك. نسأله الهداية لأن العلم وحده لا يعصمنا، ونسأله صرف السيئ لأن نفوسنا تضعف، ونسأله القبول لأن أعمالنا لا تقوم إلا بفضله. وما أجمل أن ينتهي يومك وقد خففت عن إنسان، أو سترت على مسلم في موضع السر، أو حفظت حقاً لا يعلم أحد أنك كنت قادراً على تضييعه.

اللهم لك الحمد على ما علمتنا، ولك الحمد على ما سترت من تقصيرنا. اهدنا لأحسن الأخلاق، واصرف عنا سيئها، وارزقنا

علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً صادقاً. اللهم أعنّا على رد المظالم،
وأصلح بيوتنا، وارحم والدينا، واغفر لنا ولمن قرأ هذا الكتاب أو
أعان عليه. واجعل ما فيه من خير نافعاً لعبادك، واغفر لنا ما
أخطأنا، ووقفنا للرجوع إلى الحق، وصل وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين.

أدعية تصحب المجاهدة

سؤال أحسن الأخلاق

من دعاء النبي ﷺ في الصلاة:

«وَاهِدْنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ،
وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ».^[١٩٤]

تأمل ما تسأل: هداية إلى الخير، وصرفاً للشر. فإذا دعوت بحفظ اللسان نخذ بسبب ذلك عند الخصومة، وإذا سألت الرحمة فافتح لها موضعاً في خدمة من يحتاج إليك. الدعاء استعانة نتصل بالعمل.

تزكية النفس

«اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا
وَمَوْلَاهَا».^[١٩٥]

لا يملك العبد أن يزكي نفسه تزكية استغناء عن ربه، ولا أن يشهد لها بالكمال. يسأل الله صلاحها، ويعمل بما أمره، ويقبل النصيحة التي تعينه على كشف عيوبها.

الهدى والتقوى والعفاف والغنى

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى». [١٩٦]

في هذه الكلمات سؤال الهدى الذي يبين الطريق، والتقوى التي تضبط العمل، والعفاف الذي يكف النفس عما لا يحل، والغنى الذي يحفظها من التعلق بما في أيدي الناس. احمل حاجتك إلى الله، ولا تجعل حاجتك إلى مخلوق إذنا بالتعدي على حقه.

الهداية والسداد

«اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَلِّدْنِي». [١٩٧]

تحتاج إلى السداد في مقصدك وفي كلمتك وفي تقدير ما تفعله. ليس كل اندفاع في نفع الناس نافعا بالفعل؛ اطلب الهداية، وتعلم، واستشر، ثم اعمل بما تبين لك.

العون على العبادة

«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». [١٩٨]

الشكر يظهر في استعمال النعمة فيما يرضي الله. من شكر القوة أن تكف عن الظلم، ومن شكر المال أن تؤدي حقه، ومن شكر البيان أن تصدق وتنصح ولا تفضح بغير حق.

عند الغضب

«أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».^[١٩٩]

استعد بالله، وامنع الأذى، وأخر ما يمكن تأخيرهِ من الكلام والقرارات حتى تستطيع أن تزنها. لا تجعل الاستعاذة كلمة تلقنها خصمك لتهمة، ولا تنس نصيب نفسك من العمل بها.

ثبات القلب وسلامة الصدر

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

المصدر: آل عمران: ٨.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

المصدر: الحشر: ١٠.

سؤال سلامة الصدر يجمع الاعتراف بالحاجة إلى المغفرة مع الدعاء للإخوان. إذا رأيت في قلبك غلاً فادفع أسبابه، ولا تتعمد جمع ما يزيده. وتبقى لك المطالبة بحقوقك من طريق العدل؛ فسلامة الصدر لا تقتضي تمكين أحد من ظلمك.

الرجوع بعد الزلة

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ
الْخَاسِرِينَ﴾.

المصدر: الأعراف: ٢٣.

هذا دعاء آدم وزوجه عليهما السلام، يجمع الاعتراف والافتقار.
اطلب المغفرة ولا تحم الخطأ بالأعذار، ثم أصلح ما تستطيع
إصلاحه. وما سبق من الأدعية لا يؤلف ورداً بعدد مخصوص؛
لكل نص موضعه، ويجوز الدعاء بما صح معناه من غير نسبته إلى
النبي ﷺ.

بطاقة محاسبة عملية

موقف واحد بصدق

تستطيع استعمال هذه الأسئلة في دفتر خاص بعد موقف يستحق المراجعة. اكتب ما يفيد الإصلاح، واحفظ أسرار الآخرين. لا تحتاج إلى تسجيل كل خاطر، ولا إلى إعلان درجات تتهم بها قياس منزلة قلبك.

١. ماذا وقع؟ صف القول أو الفعل دون تعميم: ماذا قلت؟ وماذا فعلت؟

٢. ما الحق الذي كان عليّ؟ ميز ما يجب أدائه عما يحسن التفضل به.

٣. أين أحسنت؟ اشكر الله على توفيقه، وحدد السبب الذي أعانك.

٤. أين أخطأت؟ سم الخطأ دون اتهام نيات غيرك أو تهوين الأذى.

٥. ما الإصلاح المطلوب؟ رد مال، أو تصحيح خبر، أو اعتذار، أو وقف تصرف متكرر.

٦. متى سأفعله؟ اختر وقتاً ممكناً، ولا تجعل خطة الغد سبباً لتأخير حق تستطيع أدائه الآن.

٧. ما التغيير الذي يسبق الموقف القادم؟ قد يكون ترتيباً للوقت، أو سؤالاً قبل الحكم، أو إيقاف عادة تحرك غضبك.

٨. بماذا أدعو؟ ادع بما تحتاج إليه من هداية وحلم وصدق، ثم خذ بالسبب الذي عرفته.

دليل المصادر والإحالات

المصادر التي أحيل إليها في هذه النسخة

القرآن الكريم: تذكر السورة والآية مع النص. وقد ترد مقتطفات من الآيات، ويبقى تمام السياق في موضعه من المصحف.

البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المشهور بصحيح البخاري. العزو برقم الحديث حيث أثبت، وباسم الكتاب أو الباب في بقية المواضع.

مسلم بن الحجاج: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المشهور بصحيح مسلم. أرقام الأحاديث الرئيسة هي الأرقام المتداولة بحسب ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي؛ وقد يفصل العرض الإلكتروني طرق الحديث بحروف لاتينية لا تغير الرقم الأصلي.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: السنن. يستعمل رقم الحديث، ويذكر حكم المحدث المنقول حيث يحتاج إليه العزو، مثل الأحاديث ١٥٢٢ و ٣٥٨٢ و ٤٧٩٨ و ٤٨٠٠.

الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع. تراعى عبارته في الحكم على الحديث عند نقلها، ومنها: حسن صحيح، وحسن غريب، وصحيح غريب؛ فلا تستبدل عبارة بأخرى.

البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد. ومنه الحديث ٢٧٣ في إتمام صالح الأخلاق، مع الإحالة إلى تصحيح الألباني له.

أحمد بن محمد بن حنبل: المسند، طبعة مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين؛ ومن المواضع المستعملة الحديث ٢٤٣٩٢ في سؤال حسن الخلق، مع حكم المحققين. تختلف أرقام المسند باختلاف الترقيم، فلا يكفي نقل رقم من طبعة إلى أخرى دون مقابلة.

الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، طبعة مؤسسة الرسالة، بإشراف شعيب الأرنؤوط. الإحالات إلى تراجم الأعلام في الكتابين السابع والثامن بحسب الجزء والصفحة حيث ثبتا. ووجود خبر في كتاب تراجم لا يساوي بنفسه الحكم بصحة إسناده؛ لا تنسب أحكام التصحيح إلى الذهبي إلا حيث نص عليها.

الألباني، محمد ناصر الدين: أحكامه على أحاديث الأدب المفرد وسنن أبي داود، في المواضع التي أحيل إلى حكمه عليها. ليست هذه الإحالة دعوى استيعاب مؤلفاته أو مقابلة جميع طرق الأحاديث.

مصادر الشرح والتهذيب

ابن القيم، مدارج السالكين؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

الغزالي، إحياء علوم الدين؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

ابن رجب، جامع العلوم والحكم؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

ابن تيمية، العقيدة الواسطية؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

ابن تيمية، قاعدة في الصبر؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

الشافعي، الرسالة؛ المواضع المشار إليها في إحالات الفصول.
الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ المواضع المشار إليها
في إحالات الفصول.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ المواضع
المشار إليها في إحالات الفصول.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج؛ المواضع المشار إليها
في إحالات الفصول.

النووي، رياض الصالحين؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس؛ المواضع المشار إليها
في إحالات الفصول.

النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم؛ المواضع المشار إليها في
إحالات الفصول.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

أبو زرعة الدمشقي، التاريخ؛ المواضع المشار إليها في إحالات
الفصول.

أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ المواضع المشار إليها في
إحالات الفصول.

صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل؛ المواضع المشار إليها
في إحالات الفصول.

تعيّن مواضع الرجوع باسم الباب أو الحديث أو الآية حيث تختلف
صفحات الطبعات؛ ولا يراد بالإحالة إلى كتاب اعتماد جميع ما
فيه من أخبار وآراء.

منافذ الرجوع الإلكتروني

صحيح البخاري - النصوص المفهرسة.

صحيح مسلم - النصوص المفهرسة.

جامع الترمذي - النصوص المفهرسة.

سنن أبي داود - النصوص المفهرسة.

الأدب المفرد - باب حسن الخلق.

الموسوعة الحديثية - عرض الأحاديث وأحكام المحدثين ومصادرها.

سير أعلام النبلاء - النص المفهرس في مكتبة إسلام ويب.

حديث سؤال حسن الخلق في مسند أحمد - الحديث ٢٤٣٩٢ مع نص التحقيق.

تنبيه في مراتب النقول

تُعزى الآيات إلى سورها وأرقامها، وتُعزى الأحاديث إلى دواوينها بأرقامها. وما كان في الصحيحين اكتفى بعزوه إليهما، وما كان في السنن أو غيرها ذكر معه حكم المحدث الذي اعتمد في هذا الكتاب. أما أخبار التراجم فتبقى أخباراً تاريخية في مصادرها، ولا تُجعل أحاديث مرفوعة، ولا يبنى عليها حكم شرعي مستقل. والتأملات والتطبيقات التي لا تُنسب إلى قائل بعينه هي من تحرير الكتاب.

روابط مواضع الشرح والتهديب

ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل الدين كله خلق، وأصول الأخلاق الأربعة. النص المرجعي.

الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب؛ بيان حقيقة الخلق وقبوله للتغيير وأسباب اكتسابه ومعرفة عيوب النفس. النص المرجعي.

ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثامن عشر، فقرة وخالق الناس بخلق حسن. النص المرجعي.

ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث السادس عشر، توجيهها وصية لا تغضب. النص المرجعي.

ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الخامس عشر. النص المرجعي.
ابن تيمية، العقيدة الواسطية، خاتمة الرسالة في مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. النص المرجعي.

ابن تيمية، قاعدة في الصبر، صدر الرسالة في أنواع الصبر؛ تحقيق محمد بن خليفة التميمي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ. النص المرجعي.

الشافعي، الرسالة، باب البيان الخامس، القول في الحلال والحرام بعلم وتفاوت العلم بالسنة. النص المرجعي.

الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة القلم الآية ٤. النص المرجعي.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل الآية ٩٠. النص المرجعي.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الشورى الآية ٤٠. النص المرجعي.
السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الأعراف الآية ١٩٩. النص المرجعي.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة يوسف الآية ٩٢. النص المرجعي.
السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الحشر الآية ٩. النص المرجعي.
السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الحجرات الآية ١٢. النص المرجعي.
النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، شرح حديث ٧٤٦. النص المرجعي.
النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، شرح حديث لا يفرك مؤمن مؤمنة، ١٤٦٩ في الترقيم الشائع. النص المرجعي.
النووي، رياض الصالحين، باب ما يباح من الغيبة. النص المرجعي.

ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل الإخوان والصدقة والنصيحة، لا تنصح على شرط القبول؛ الصفحة الرابعة في العرض الإلكتروني. النص المرجعي.

ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل مداواة العجب، أوله من امتحن بالعجب؛ الصفحة الثامنة في العرض الإلكتروني. النص المرجعي.
الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ٢٠٠٥. النص المرجعي.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة أبي حنيفة، ٦/٤٠٣، تقرير الذهبي إمامته في الفقه. النص المرجعي.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة مالك بن أنس، ٨/٧٧، خبر الهيثم بن جميل. النص المرجعي.

النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، كتاب الفضائل، شرح الحديث ٢٣٢٦. النص المرجعي.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الصافات، الآية ١٠١. النص المرجعي.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الصافات، الآية ١٠٢. النص المرجعي.

السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الأنبياء، الآية ٩٠. النص المرجعي.
أبو زرعة الدمشقي، التاريخ، الجزء الخامس، خبر الوليد بن عتبة عن الهيثم بن جميل في سؤال مالك. النص المرجعي.

أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٧/٥، خبر وكيع عن سفيان في مجاهدة النفس. النص المرجعي.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/١٠-١٧، خبر يونس الصدي عن الشافعي. النص المرجعي.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٦٦، خبر صالح عن أبيه في العفو. النص المرجعي.

صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، ص ٦٥، خبر عفو الإمام عن ضربه. النص المرجعي.

إحالات الفصول والنصوص

أرقام الإحالات في المتن متصلة بهذه القائمة. الآيات معزوة إلى سورها وأرقامها، وأحاديث الصحيحين معزوة إلى أصولها. وقد تختلف أرقام الطرق أو الصفحات في بعض الطبعات، لذلك يذكر الباب أو موضع الشرح عند الحاجة. وما نقل من كتب التراجم خبر عن صاحبه، لا حديث نبوي ولا تصحيح عام لكل ما في مصدره. التطبيقات المعاصرة التي لا تنسب إلى قائل هي من تحرير الكتاب.

المقدمة

- [١] صحيح مسلم، حديث ٧٧١، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- [٢] جامع الترمذي، حديث ٢٠٠٢، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
- [٣] صحيح مسلم، حديث ٢٣٠٩، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- [٤] صحيح البخاري، حديث ١٤٦٩، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ وهو جزء من حديث.
- [٥] صحيح مسلم، حديث ٢٧٢٢، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ وهو جزء من حديث.

الفصل ١ — الخلق والخلق

- [٦] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب، بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق.

الفصل ٢ — الفطرة والطبع والعادة والاكتساب

[٧] صحيح مسلم، ١٧.

[٨] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة.

[٩] صحيح البخاري، ١٤٦٩؛ صحيح مسلم، ١٠٥٣.

الفصل ٣ — من النية إلى السجية

[١٠] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق.

[١١] صحيح البخاري، ٦٠٩٤؛ صحيح مسلم، ٢٦٠٧، واللفظ لمسلم.

[١٢] صحيح مسلم، ٢٦٥٤، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

الفصل ٤ — حسن الخلق مع الله والنفس والخلق

[١٣] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثامن عشر، عند قوله: «وخالق الناس بخلق حسن».

[١٤] صحيح البخاري، ١٩٦٨.

[١٥] صحيح البخاري، ٦٠١٨؛ صحيح مسلم، ٤٧.

الفصل ٥ — الأخلاق ثمرة التوحيد والإيمان والتقوى

[١٦] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، خاتمة الرسالة في أخلاق أهل السنة والجماعة وأعمالهم.

[١٧] جامع الترمذي، ١١٦٢؛ قال الترمذي: حسن صحيح.

الفصل ٦ — العبادات ومدرسة الأخلاق

[١٨] صحيح البخاري، ١٩٠٣.

الفصل ٧ — لماذا يحسن الإنسان في باب ويسيء في آخر

[١٩] ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل «الدين كله خلق».

الفصل ٨ — الميزان الشرعي لا المزاج والعرف وحدهما

[٢٠] الشافعي، الرسالة، باب البيان الخامس، فقرة «وليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم».

الفصل ٩ — وإنك لعلی خلق عظیم

[٢١] الطبري، جامع البيان، تفسير سورة القلم، الآية ٤.

[٢٢] صحيح مسلم، ٧٤٦.

الفصل ١٢ — الإحسان وما فوق العدل

[٢٣] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة النحل، الآية ٩٠.

[٢٤] صحيح مسلم، ١٩٥٥.

الفصل ١٣ — الصبر وكظم الغيظ

[٢٥] صحيح البخاري، ٦١١٤؛ صحيح مسلم، ٢٦٠٩.

[٢٦] ابن تيمية، قاعدة في الصبر، صدر الرسالة في أنواع الصبر.

الفصل ١٤ — العفو والصفح والإصلاح

[٢٧] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الشورى، الآية ٤٠.

الفصل ١٥ — الرفق واللين وخفض الجناح

[٢٨] صحيح مسلم، ٢٥٩٤.

[٢٩] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

الفصل ١٦ — الصدق والصدقية

[٣٠] صحيح البخاري، ٦٠٩٤؛ صحيح مسلم، ٢٦٠٧، واللفظ لمسلم.

الفصل ١٨ — التواضع وترك الفخر والخيلاء

[٣١] صحيح مسلم، ٢٥٨٨.

الفصل ١٩ — الحياء والعفة

[٣٢] صحيح البخاري، ٩؛ صحيح مسلم، ٣٥.

الفصل ٢١ — حفظ اللسان

[٣٣] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الخامس عشر.

[٣٤] صحيح البخاري، ٦٠١٨؛ صحيح مسلم، ٤٧.

الفصل ٢٣ — البر والصلة والإحسان إلى الضعيف

[٣٥] صحيح البخاري، ٦٠١٤؛ صحيح مسلم، ٢٦٢٤.

الفصل ٢٥ — الرحمة والحزم والعفو وإقامة الحق

[٣٦] ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل «الدين كله خلق».

الفصل ٢٦ — بعثت لأتمم صالح الأخلاق

[٣٧] الأدب المفرد للبخاري، ٢٧٣؛ صححه الألباني.

الفصل ٢٧ — حسن الخلق وكمال الإيمان

[٣٨] جامع الترمذي، ١١٦٢؛ قال الترمذي: حسن صحيح.

الفصل ٢٨ — أثقل ما يوضع في الميزان

[٣٩] جامع الترمذي، ٢٠٠٢؛ قال الترمذي: حسن صحيح.

الفصل ٢٩ — القرب من النبي ﷺ

[٤٠] جامع الترمذي، ٢٠١٨؛ قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

الفصل ٣٠ — درجة الصائم القائم

[٤١] سنن أبي داود، ٤٧٩٨؛ صححه الألباني.

[٤٢] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثامن عشر.

الفصل ٣١ — تقوى الله وحسن الخلق

[٤٣] جامع الترمذي، ٢٠٠٤؛ قال الترمذي: حديث صحيح غريب.

الفصل ٣٢ — بيت في أعلى الجنة

[٤٤] سنن أبي داود، ٤٨٠٠؛ حسنه الألباني.

الفصل ٣٣ — الفحش واللعن والخصومة

[٤٥] جامع الترمذي، ١٩٧٧؛ قال الترمذي: حسن غريب.

الفصل ٣٤ — الرفق يزين الأمور

[٤٦] صحيح مسلم، ٢٥٩٤.

الفصل ٣٥ — الحياء من الإيمان

[٤٧] صحيح البخاري، ٢٤؛ صحيح مسلم، ٣٦.

[٤٨] صحيح مسلم، ٣٣٢.

الفصل ٣٦ — القوة عند الغضب

- [٤٩] صحيح البخاري، ٦١١٤؛ صحيح مسلم، ٢٦٠٩.
[٥٠] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث السادس عشر.

الفصل ٣٧ — وصايا جامعة في المعاملة

- [٥١] جامع الترمذي، ١٩٨٧؛ قال الترمذي في النص الإلكتروني المقابل: حسن صحيح؛ ونقله النووي بلفظ حسن.

الفصل ٣٩ — شهادة عائشة رضي الله عنها

- [٥٢] صحيح مسلم، ٧٤٦.
[٥٣] النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، شرح حديث ٧٤٦.

الفصل ٤٠ — رحمته ﷺ بالأمة

- [٥٤] صحيح البخاري، ٨٨٧؛ صحيح مسلم، ٢٥٢، واللفظ لمسلم من طريق زهير.
[٥٥] صحيح البخاري، ٧٠٧؛ صحيح مسلم، ٤٧٠.

الفصل ٤١ — أخلاقه في البيت

- [٥٦] جامع الترمذي، ٣٨٩٥؛ قال الترمذي: حسن غريب صحيح.
[٥٧] سنن أبي داود، ٢٥٧٨؛ صححه الألباني.
[٥٨] صحيح البخاري، ١٣٠٣.

الفصل ٤٢ — خدمته لأهله وتواضعه في معيشته

[٥٩] صحيح البخاري، ٦٧٦.

[٦٠] صحيح البخاري، ٦٤٥٩؛ صحيح مسلم، ٢٩٧٢.

الفصل ٤٣ — مع الأطفال واليتامى والضعفاء

[٦١] صحيح البخاري، ٥٩٩٧؛ صحيح مسلم، ٢٣١٨.

[٦٢] صحيح البخاري، ٥١٦؛ صحيح مسلم، ٥٤٣.

[٦٣] صحيح البخاري، ٦٠٠٥.

الفصل ٤٤ — مع الخادم والأجير

[٦٤] صحيح مسلم، ٢٣٠٩.

الفصل ٤٥ — مع الأعرابي والجاهل وحديث العهد بالإسلام

[٦٥] صحيح البخاري، ٢٢٠.

الفصل ٤٦ — حله عند الأذى الشخصي

[٦٦] صحيح البخاري، ٣١٤٩؛ صحيح مسلم، ١٠٥٧.

الفصل ٤٧ — عفوهِ عند المقدرة

[٦٧] صحيح البخاري، ٣٢٣١؛ صحيح مسلم، ١٧٩٥.

[٦٨] صحيح مسلم، ١٧٨٠.

الفصل ٤٨ — عدله في حقوق الناس

[٦٩] صحيح البخاري، ٣٤٧٥؛ صحيح مسلم، ١٦٨٨.

الفصل ٤٩ — صدقه وأمانته

[٧٠] صحيح البخاري، ٧.

[٧١] صحيح البخاري، ٣؛ صحيح مسلم، ١٦٠.

الفصل ٥٠ — الوفاء بالعهد وحفظ الجليل

[٧٢] صحيح البخاري، ٢٧٣١-٢٧٣٢.

[٧٣] صحيح البخاري، ٣٨١٨؛ صحيح مسلم، ٢٤٣٥.

الفصل ٥١ — تواضعه ﷺ

[٧٤] صحيح البخاري، ٦٠٧٢.

[٧٥] صحيح مسلم، ٢٣٢٦.

[٧٦] النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به، شرح الحديث ٢٣٢٦.

الفصل ٥٢ — حياؤه وعفته ونقاء لسانه

[٧٧] صحيح البخاري، ٣٥٦٢؛ صحيح مسلم، ٢٣٢٠.

[٧٨] صحيح البخاري، ٣٥٥٩؛ صحيح مسلم، ٢٣٢١.

الفصل ٥٣ — جوده وحسن عشرته

[٧٩] صحيح البخاري، ٦؛ صحيح مسلم، ٢٣٠٨.

[٨٠] صحيح مسلم، ٢٣١١.

الفصل ٥٤ — شجاعته وثباته دون قسوة

[٨١] صحيح البخاري، ٢٨٦٤؛ صحيح مسلم، ١٧٧٦.

[٨٢] صحيح مسلم، ٢٣٠٧.

الفصل ٥٥ — مزاحه الصادق وشاشته وإنصاته

[٨٣] صحيح البخاري، ٣٠٣٥؛ صحيح مسلم، ٢٤٧٥.

[٨٤] صحيح مسلم، ٢٣٢٦.

الفصل ٥٦ — أدبه في التعليم وتصحيح الخطأ

[٨٥] صحيح مسلم، ٥٣٧.

الفصل ٥٧ — أدبه في النصيحة والعتاب

[٨٦] صحيح البخاري، ٦١٠١؛ صحيح مسلم، ٢٣٥٦.

[٨٧] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل الإخوان والصدقة والنصيحة.

الفصل ٥٨ — مع المخالف والأسير

[٨٨] صحيح البخاري، ٤٦٢؛ صحيح مسلم، ١٧٦٤.

[٨٩] صحيح مسلم، ١٧٦٤، من حديث أبي هريرة.

الفصل ٥٩ — أخلاق القيادة

[٩٠] صحيح البخاري، ٤٤٦٩؛ صحيح مسلم، ٢٤٢٦.

الفصل ٦٠ — أخلاق الحرب والسلام والعهود

[٩١] صحيح البخاري، ٣٠١٤؛ صحيح مسلم، ١٧٤٤.

الفصل ٦٥ — إسماعيل عليه السلام صدق الوعد والصبر

[٩٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الصافات: ١٠١؛ السعدي، تيسير

الكريم الرحمن، تفسير الصافات: ١٠١-١٠٢.

الفصل ٦٧ — يوسف عليه السلام العفيف المحسن

[٩٣] السعدي، تيسير الكريـم الرحمن، تفسير سورة يوسف، الآية ٩٢.

الفصل ٧٦ — أبو بكر رضي الله عنه

[٩٤] صحيح البخاري، ٤٧٥٠؛ صحيح مسلم، ٢٧٧٠.

الفصل ٧٧ — عمر رضي الله عنه

[٩٥] صحيح البخاري، ٤٩٩٢؛ صحيح مسلم، ٨١٨.

[٩٦] صحيح البخاري، ١٣٩٩-١٤٠٠.

الفصل ٧٨ — عثمان رضي الله عنه

[٩٧] صحيح مسلم، ٢٤٠١.

[٩٨] صحيح البخاري، ٢٧٧٨.

الفصل ٧٩ — علي رضي الله عنه

[٩٩] صحيح البخاري، ٤٢١٠؛ صحيح مسلم، ٢٤٠٦؛ واللفظ للبخاري.

[١٠٠] سنن أبي داود، ٣٥٨٢؛ حسنه الألباني.

الفصل ٨٠ — خديجة رضي الله عنها

[١٠١] صحيح البخاري، ٣؛ صحيح مسلم، ١٦٠.

الفصل ٨١ — عائشة رضي الله عنها

[١٠٢] صحيح البخاري، ٤٧٥٠؛ صحيح مسلم، ٢٧٧٠.

الفصل ٨٢ — فاطمة رضي الله عنها

[١٠٣] صحيح البخاري، ٣٧١٤.

[١٠٤] صحيح البخاري، ٣٧٠٥؛ صحيح مسلم، ٢٧٢٧.

[١٠٥] صحيح مسلم، ٢٤٥٠، من طريق عروة عن عائشة؛ وأصل المسارة في صحيح البخاري، ٣٦٢٣-٣٦٢٤، بتفصيل آخر للبشارة.

الفصل ٨٣ — أبو عبيدة رضي الله عنه

[١٠٦] صحيح البخاري، ٤٣٨٠؛ صحيح مسلم، ٢٤١٩؛ واللفظ لمسلم.

الفصل ٨٤ — ابن مسعود رضي الله عنه

[١٠٧] صحيح البخاري، ٥٠٠٠.

[١٠٨] صحيح البخاري، ٥٠٤٩ و ٥٠٥٠؛ صحيح مسلم، ٨٠٠.

الفصل ٨٥ — ابن عباس رضي الله عنهما

[١٠٩] صحيح البخاري، ١٤٣.

[١١٠] صحيح البخاري، ١٨٣؛ صحيح مسلم، ٧٦٣.

الفصل ٨٦ — أنس رضي الله عنه

[١١١] صحيح مسلم، ٢٣٠٩.

[١١٢] صحيح البخاري، ٦٣٤٤؛ صحيح مسلم، ٢٤٨١.

الفصل ٨٧ — سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما

[١١٣] صحيح البخاري، ١٩٦٨.

الفصل ٨٨ — الأنصار رضي الله عنهم

[١١٤] صحيح البخاري، ٣٧٩٨؛ صحيح مسلم، ٢٠٥٤.

[١١٥] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الحشر، الآية ٩.

[١١٦] صحيح البخاري، ٣٧٧٨؛ صحيح مسلم، ١٠٥٩.

الفصل ٨٩ — التوبة والاعتذار ورد الحقوق

[١١٧] صحيح البخاري، ٤٤١٨؛ صحيح مسلم، ٢٧٦٩.

الفصل ٩٠ — أدب الصحابة في الاختلاف

[١١٨] صحيح البخاري، ٤١١٩؛ صحيح مسلم، ١٧٧٠؛ واللفظ للبخاري، وفي رواية مسلم ذكر الظهر.

الفصل ٩١ — الحسن البصري ومحاسبة النفس

[١١٩] سير أعلام النبلاء، ترجمة الحسن البصري، ٤/٥٦٣ وما بعدها.

الفصل ٩٢ — علي بن الحسين والعلم والورع

[١٢٠] سير أعلام النبلاء، ٤/٣٨٧-٣٨٨، نقل حكم ابن سعد في ترجمة علي بن الحسين.

الفصل ٩٣ — سعيد بن المسيب والوقار

[١٢١] سير أعلام النبلاء، ٤/٢١٧ وما بعدها.

الفصل ٩٤ — عروة والقاسم والعلم المؤدب

[١٢٢] صحيح مسلم، ٢٦٧٣.

الفصل ٩٥ — عمر بن عبد العزيز وأمانة المسؤولية

[١٢٣] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، قبل الحديث ١٠٠.

الفصل ٩٦ — محمد بن سيرين والورع في الكلمة

[١٢٤] مقدمة صحيح مسلم، باب بيان أن الإسناد من الدين؛ أثر محمد بن سيرين من طريق حماد بن زيد عن أيوب وهشام؛ ورقه في عنوان الصفحة الإلكترونية ٢٦ وفي ترقيم الباب ٢٥.

الفصل ٩٧ — سفيان الثوري والخوف من آفات النفس

[١٢٥] أبو نعيم، حلية الأولياء، ٧/٥، من طريق وكيع عن سفيان؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ٧/٢٥٨، واللفظ له.

الفصل ٩٨ — عبد الله بن المبارك والأدب والصحبة

[١٢٦] جامع الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ٢٠٠٥؛ وهو أثر من كلام ابن المبارك، لا حديث مرفوع إلى النبي ﷺ.

الفصل ٩٩ — الفضيل بن عياض ومداواة العجب

[١٢٧] سير أعلام النبلاء، ترجمة الفضيل بن عياض، ٨/٤٢١ وما بعدها.

الفصل ١٠٠ — بشر الحافي ومعروف الكرخي

[١٢٨] سير أعلام النبلاء، ترجمة معروف الكرخي، ٩/٣٣٩ وما بعدها؛ و ترجمة بشر بن الحارث، ١٠/٤٦٩ وما بعدها.

الفصل ١٠٢ — أبو حنيفة الحلم والورع

[١٢٩] سير أعلام النبلاء، ترجمة أبي حنيفة، ٦/٣٩٠ وما بعدها.
[١٣٠] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة أبي حنيفة، ٦/٤٠٣، كلام الذهبي عقب النقول في فقهه.

الفصل ١٠٣ — مالك وهيبة العلم

[١٣١] أبو زرعة الدمشقي، التاريخ، الجزء الخامس، خبر الوليد بن عتبة عن الهيثم بن جميل في سؤال مالك؛ ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء، ٨/٧٧.

الفصل ١٠٤ — الشافعي وإنصاف المخالف

[١٣٢] الشافعي، الرسالة، باب البيان الخامس، الكلام على إحاطة جماعة أهل العلم بالسنة وتفاوت آحادهم فيها.

الفصل ١٠٥ — أحمد والصبر في المحنة

[١٣٣] صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، ص ٦٥، خبر عفو الإمام عن ضربه.

الفصل ١٠٧ — تعظيم النص والرجوع إلى الحق

[١٣٤] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، خاتمة الرسالة.

الفصل ١٠٩ — الصدق والكذب

[١٣٥] صحيح مسلم، ٢٦٠٧.

الفصل ١١٠ — الإخلاص والرياء

[١٣٦] صحيح البخاري، ١.

الفصل ١١١ — التواضع والكبر والعجب

[١٣٧] صحيح مسلم، ٩١.

[١٣٨] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل مداواة العجب، أوله «من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه».

[١٣٩] صحيح مسلم، ٢٥٨٨.

الفصل ١١٢ — الرحمة والقسوة

[١٤٠] صحيح البخاري، ٦٠١٣.

الفصل ١١٣ — الحلم والغضب

[١٤١] صحيح البخاري، ٦١١٦.

[١٤٢] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث السادس عشر.

الفصل ١١٤ — الرفق والعنف

[١٤٣] صحيح مسلم، ٢٥٩٣.

الفصل ١١٦ — السخاء والشح

[١٤٤] صحيح مسلم، ٢٥٧٨.

[١٤٥] ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل أصول الأخلاق الأربعة.

الفصل ١١٧ — الإيثار والأثرة

[١٤٦] صحيح البخاري، ٣٧٩٨.

الفصل ١١٨ — الحياء والوقاحة والنجل المعيق

[١٤٧] صحيح البخاري، ٦١١٧.

[١٤٨] ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل أصول الأخلاق الأربعة.

الفصل ١١٩ — الشجاعة والجبين والتهور

[١٤٩] صحيح مسلم، ٢٣٠٧.

[١٥٠] ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة الخلق، فصل أصول الأخلاق الأربعة.

الفصل ١٢١ — الوفاء والغدر ونقض الوعد

[١٥١] صحيح البخاري، ٣٣.

الفصل ١٢٣ — حسن الظن والتثبت وسوء الظن

[١٥٢] صحيح البخاري، ٦٠٦٤.

[١٥٣] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة الحجرات، الآية ١٢.

الفصل ١٢٤ — الستر والنصيحة والتشهير

[١٥٤] صحيح مسلم، ٢٦٩٩.

[١٥٥] النووي، رياض الصالحين، باب ما يباح من الغيبة.

الفصل ١٢٦ — المداراة والمداهنة

[١٥٦] صحيح البخاري، ٦٠٣٢.

الفصل ١٢٨ — المزاح والجد وحدود الأذى

[١٥٧] جامع الترمذي، ١٩٩٠؛ قال الترمذي: حسن صحيح.

الفصل ١٢٩ — الصمت والكلام وحفظ اللسان

[١٥٨] صحيح البخاري، ٦٠١٨.

[١٥٩] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الخامس عشر.

الفصل ١٣٠ — الغيبة والنميمة والسخرية والفحش والمرء

[١٦٠] صحيح مسلم، ٢٥٨٩.

[١٦١] صحيح مسلم، ١٠٥.

[١٦٢] صحيح مسلم، ٢٦٦٤.

الفصل ١٣١ — إمكان اكتساب الخلق وحدود الدعوى

[١٦٣] صحيح البخاري، ١٤٦٩.

[١٦٤] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة.

الفصل ١٣٢ — معرفة عيب النفس بلا احتقار لها

[١٦٥] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه.

الفصل ١٣٣ — النية والافتقار إلى الله

[١٦٦] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل الإخوان والصدقة والنصيحة.

[١٦٧] صحيح مسلم، ٢٧٢٢.

الفصل ١٣٤ — اهتدي لأحسن الأخلاق

[١٦٨] صحيح مسلم، ٧٧١.

الفصل ١٣٥ — اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي

[١٦٩] مسند أحمد، ٢٤٣٩٢، ٤٠/٤٥٦، من طريق إسرائيل عن عاصم بن سليمان عن عبد الله بن الحارث عن عائشة؛ حكم شعيب الأرنؤوط بصحته.

الفصل ١٣٦ — التوبة ورد المظالم والاعتذار

[١٧٠] صحيح البخاري، ٢٤٤٩.

الفصل ١٣٨ — إبطاء الاستجابة عند الغضب

[١٧١] صحيح البخاري، ٦١١٥.

الفصل ١٤٠ — التخلق بالفعل حتى يألفه الإنسان

[١٧٢] صحيح البخاري، ٦٤٦٤.

[١٧٣] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق.

الفصل ١٤١ — الصحبة والبيئة والقدوة

[١٧٤] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه.

الفصل ١٤٣ — الصيام وضبط الاندفاع

[١٧٥] صحيح البخاري، ١٩٠٣.

الفصل ١٤٥ — الخدمة ومجاهدة الأثرة

[١٧٦] صحيح البخاري، ٦٧٦.

الفصل ١٤٦ — قبول النقد والرجوع عن الخطأ

[١٧٧] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه.

الفصل ١٤٨ — كظم المشاعر أم ضبط السلوك؟

[١٧٨] صحيح البخاري، ١٣٠٣.

[١٧٩] الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة.

الفصل ١٥١ — مع الوالدين والأرحام

[١٨٠] صحيح البخاري، ٢٦٢٠.

الفصل ١٥٢ — بين الزوجين

[١٨١] صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث أبي هريرة «لا يفرك مؤمن مؤمنة»، ١٤٦٩ في الترقيم المتداول؛ ومتن الرواية في العرض الإلكتروني برقم ١٤٦٨ ب.

[١٨٢] النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، شرح حديث ١٤٦٩ في الترقيم الشائع.

الفصل ١٥٣ — مع الأبناء والمراهقين

[١٨٣] صحيح البخاري، ٢٥٨٧.

الفصل ١٥٤ — مع الجار والضيف

[١٨٤] صحيح البخاري، ٦٠١٨.

[١٨٥] ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الخامس عشر.

الفصل ١٥٥ — في العمل والتجارة والديون

[١٨٦] صحيح مسلم، ١٠٢.

[١٨٧] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة النحل، الآية ٩٠.

[١٨٨] صحيح البخاري، ٢٠٧٦.

الفصل ١٥٦ — في القيادة والإدارة وخدمة الناس

[١٨٩] صحيح مسلم، ١٨٢٨.

الفصل ١٥٧ — في الخصومة والقضاء والحقوق

[١٩٠] صحيح مسلم، ١٧١٣.

الفصل ١٥٨ — مع المخالف في الدين والرأي

[١٩١] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، خاتمة الرسالة.

الفصل ١٥٩ — في التواصل والنشر والخصوصية

[١٩٢] النووي، رياض الصالحين، باب ما يباح من الغيبة.

الفصل ١٦٠ — أخلاق الخفاء

[١٩٣] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، فصل مداواة العجب.

الأدعية والملاحق

[١٩٤] صحيح مسلم، ٧٧١، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ مقتطف من دعاء أطول.

[١٩٥] صحيح مسلم، ٢٧٢٢، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ مقتطف من الحديث.

[١٩٦] صحيح مسلم، ٢٧٢١، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[١٩٧] صحيح مسلم، ٢٧٢٥، من حديث علي رضي الله عنه.

[١٩٨] سنن أبي داود، ١٥٢٢، من وصيته ﷺ لمعاذ رضي الله عنه؛ صححه الألباني. وردت الوصية بهذا الدعاء في دبر كل صلاة.

[١٩٩] صحيح البخاري، ٦١١٥، من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه في الرجل الذي اشتد غضبه.